جان دوست

ثلاث خطوات إلى المشنقة




جان دوست
ثلاث خطوات
إلى المشنقة
رواية
دار
الساقي

ثلاث خطوات إلى المشنقة

جان دوست

ثلاث خطوات إلى المشنقة



الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0110-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على



DarAlSaqi@



دار الساقي



Dar Al Saqi

جرت هذه الأحداث في حلكة الليل وتحت ظلال مشانق رفرفت عليها أجنحة مشتعلة لطائر الخيال.
إنك لست في حاجة إلى ضوء لتقرأها.
فقط اخلع نعلي قلبك ليمشي حافياً على شوك هذه الرواية.

عتبة الخطى

أظمأه ملح السؤال الذي أراد طرحه على ربّه فشعر بملوحة المحيطات في فمه، ومع ذلك ابتسم في وجه الجنديين الممسكين بذراعيه كمن عاد لتوّه من النبع.

أصغى إلى حديث ذينك الجنديين في ذلك الظلام الحالك ثم ابتسم كأنّ ربيعاً لثم وجهه وفردوساً نصب خيامه عليه. بلع ريقه عدّة مرات فلم ينجح في إزاحة طعم الملوحة من فمه.

- الظمأ قصيدة قافيتها الماء.

سالت هذه الجملة التي سمعها من أحد دراويش جزيرة بوطان في ذاكرته.

- القافية! آآآه. كيف لي أن أصل في هذه الليلة الشبيهة بقصيدة سوداء إلى قافية نديّة مضيئة؟

هكذا فكر الشيخ سعيد بيران فيما أمسك به الجنديان وهما يتحدثان عن الماء. قال أحدهما للآخر:

- ألم تظمأ يا؟ لقد التصق لساني بحلقي من شدّة العطش.

وسحب مطَرةَ ماء ملفوفةً بالخيش من تحت حزامه ومدّها له. لم يجب زميله بشيء بل خطف المطرة ورفعها ليدلق الماء في جوفه فأحدثت المطرة بقبقة تبعها صوت الماء ينسكب في المريء.

بدا الجندي الأول وكأنه استحى من الشيخ قليلاً فقال لرفيقه وهو يبتسم ابتسامة خجولاً:
- ألم ترَ ماءً من قبل؟ أم أنت صائم منذ عام؟
وسحب المطرة من يده، رفعها إلى أعلى ودلق الماء في جوفه.
كان الماء المنسكب في فم الجندي يبدو في ضوء نجوم تلك السماء الخرساء كأنه قوس حياة.
- أوووه كم بارد هذا الماء.
قال الجندي بالتركية بفم يسيل الماء على جوانبه ثم سكب ما بقي في المطرة على جزمتيه.
توجّه الشيخ سعيد إلى أعلى حيث هبط ظلام أشدّ سواداً من جزمتي الجندي على صدر مدينة آمد[1]. كان يريد طرح سؤال على الله، سؤال حاول طرحه عشرات المرات فمنعه الحياء:

1 آمد: الاسم الكردي لمدينة دياربكر في تركيا.

- لم يحن أوان موتي بعد. سأطرح سؤالي في حينه.

***

كان غالبية أهل آمد نائمين. لم يضع أحدٌ قبل أن يخلد إلى النوم قبّعة الأسئلة على رأس خياله، لم يسأل أحد نفسه ما الذي يمكن أن يحدث الليلة عند باب الجبل. بقي بعض الناس سهرانين، بعد أن تفقدوا دجاجاتهم الراقدة في أقنانها وعرجوا على جرار الماء المغطاة أفواهها بأطباق النحاس، فسكبوا

على أبدانهم ماءً ثم تمدّدوا بجانب زوجاتهم وألسنتهم تلهج بالحمد لله حمداً طويلاً.

كانت الديوك نائمة. كانت منكمشة على أنفسها تتدلى أعرافها المخدوشة بسبب عراكها مع ديوك أخرى وكأن الشمس لن تشرق وتشق كبد الظلام بقرونها الذهبية. أما الذين لم يتمكنوا من النوم بسبب البعوض والبراغيث فقد صعدوا أسطح البيوت ونثروا الماء حول أسرتهم التي فرشوها هناك. آخرون أحرقوا روث الماشية في الصفائح لطرد الحشرات المؤذية. بعضهم علقوا جرار فخّار صغيرة مملوءة ماءً بغصن شجرة أو وضعوها على مصاطب مرتفعة حتى يبرد الماء مع أنسام الفجر.

ما من أحد كان ظامئاً ذلك الفجر في آمَد سوى ذلك الشيخ الذي أمسك جنديان بذراعيه وهم يقودانه صوب المشنقة.

تلألأت النجوم مثل قطرات الماء التي تطايرت حين انسكب الماء على بسطار الجندي الذي أمسك ذراع الشيخ اليسرى. ثمّ شحب ضوؤها وشارفت على أن تغيب.

رفع الشيخ رأسه قليلاً وصار يبحث عن نجمة الصبح:

- ما زال الوقت مبكراً لظهورها.

قال هامساً لنفسه.

مضى الثلاثة ببطء صوب ساحة المشانق.

لم تكن خطوات الجنديين سريعة ولا كانت بطيئة. لكن حطت رغبة فظيعة في النوم رحالها على وجهيهما. رقَّ قلب

الشيخ لحالهما وقال لنفسه: ”مسكينان. لم يناما جيداً“ وأوشك أن يقول لهما: ”اعذراني“ لكن الملوحة القابعة تحت لسانه منعته.

مع اقترابهما من المشانق أكثر فأكثر زادت الملوحة المعرّشة كشجيرة علّيق في فمه. لم يشأ أن يعلن عن ظمئه. ما كانت مياه دجلة كلها تكفي لتروي ظمأه.

- يا ولديَّ.

فجأة خاطب الشيخ الجنديين.

كاد الاثنان يتوقفان لكنّهما استمرا في الإيقاع ذاته دون أن يردّا بكلمة واحدة.

نظر الشيخ إلى الجنديين وأدرك أنهما سمعا صوته لكنهما لا يملكان وقتاً كافياً ليجيباه. كان الشيخ يريد أن يخبرهما أن حصاة صغيرة موجودة في حذائه لكنه آثر الصمت.

كانت تلك حصاة صغيرة استقرّت بين إصبعين من أصابع قدمه اليسرى. وكانت تؤلمه جداً وتقطع عليه سيل أفكاره. أراد أن يطلب من ذينك الجنديين أن يعيناه على إخراجها لكنه لم يفعل واكتفى بأنّة صغيرة قصيرة مثل ثورته التي أشعلها.

زمّ الجنديّان شفاههما وصار يوسعان خطواتهما أكثر.

أسرع الشيخ لكي يخفي عجزه وشيخوخته، صار يمشي بالإيقاع ذاته الذي يمشي به الجنديان. كانت يداه المقيّدتان من الخلف تعوقان سرعته، بل أحياناً كانتا تسببان عدم انتظام خطوه حتى كاد يسقط عدة مرات حين تصادمت قدماه. حاول

عدة مرات أن يطلب منهما أن يخففا سيرهما لكنه قال في نفسه: ”سيظنّان أنني أخاف التوجّه إلى مشنقتي“. فلم يفعل.
هبّت نسمة منعشة رخيّة فأزاحت قفطانه الأطلس المزيّن بخطوط عسلية اللون عن ساقين نحيلتين شاب شعرهما. ساقان تقودانه في حلكة ذلك الهزيع الأخير من الليل صوب قدر مظلم بينما تنزف أصابع قدميه دماً قانياً.
- الحياة زقاق وحيد الاتّجاه ينسدّ من الخلف كلما مشى فيه الإنسان.
قال لنفسه.
ومع أنه كان لا يزال يعتقد بأن حياة المرء وموته في يد الله صار على اقتناع راسخ بأن خطواته تلك، الخطوات المتعثرة التي لا يستطيع التحكم بها، تقوده إلى موت محتوم.
آلاف المرات صلّى على الموتى. مشى في جنازاتهم. وقف على شواهد القبور ورأى كيف يغسلون الجثامين. قرأ تلقين بعض من ماتوا. غسل أباه بيديه ولفّ الكفن على جسده. ألقى مواعظ في كثير من مجالس العزاء، كان يردّد دائماً:
- الموت هو الوجه الآخر للحياة. ولا بدّ للمرء من أن يعاين كلا الوجهين.
كان بعض من فجعهم موت أعزائهم يسألون:
- لمَ الموت مرٌّ إلى هذا الحدّ يا مولانا؟
- مرارة الموت وعدم مرارته مرتبطان بمقدار حلاوة الحياة في نظر المرء.

- وهل أحلى من الحياة يا مولانا؟ إن الله بذاته جعل الحياة حلوة.
- إن كان الظلم هو الخيط الذي يجمع عقد الحياة، فهي لم تعد حياة، إنها ثمرة حنظل في فم المرء.

***

استعدّت آمد لتلقي عن كتفيها العباءة السوداء التي نسجها الظلم بأنامله وترتدي بدلاً منها قفطاناً شفيفاً رقيقاً. كانت تريد أن تستقبل الشيخ بطريقة تليق بمقامه، تحضنه، تحضن عطشه، تلثم الجرح الذي سبّبته الحصاة لإصبع قدمه اليسرى، توقف جريان دجلة وتردم جميع الينابيع والآبار إكراماً لعطشه، ثمّ تطهر أذنيها بوقع خطواته.

كانت قد استعدّت قبل شهرين لاستقباله بطريقة مختلفة عن الآن. كانت قد مهّدت سبلها وتراب طرقاتها ليدوسها الشيخ بخطوه لكن الجنود الترك سبقوه إلى ذلك.

طغى وقع حذاء الشيخ على وقع حذاءي الجنديّين. تناغمت أمواج دجلة مع ذلك الوقع المبارك. تذكر أن أحد مريديه الإسكافية من ألازغ أهدى له ذلك الحذاء. لم يقبل المريد أن يقبض ثمن الحذاء:

- معاذ الله يا جناب الشيخ. روحي فداك. فليجعلني الله حذاءً لقدميك المباركتين.

ابتسم الشيخ في وجه المريد وقال:

- أتمنّى من الله أن يعينني على أن أسعى في الخير بهذا الحذاء.
خطا بذلك الحذاء آلاف الخطوات. ذهب به إلى المساجد، زار قبور الأولياء، أرشد الناس في القرى، أصلح بين رؤساء العشائر المتخاصمين. اجتمع لأجل حقوق الكرد. انتعلت ثورةٌ ذلك الحذاء.
كان الشيخ يردّد دائماً على مسامع مريديه:
- خطوات المرء معدودات. وكل خطوة تدنيه أكثر من موته، تماماً مثلما تبعده عن يوم مولده. انتبهوا لخطواتكم، لا تسعوا بها إلّا في الخير. ولا يهمّ إن أوصلتكم تلك الخطوات إلى الموت. لا تخافوا. فثمّة خطوات يخطوها المرء بعد موته أيضاً. اعملوا لتلك الخطوات.

***

الأنسام الصيفية التي هبّت من جهة دجلة وأزاحت قفطان الشيخ لتكشف عن ساقية اللتين تمضيان به إلى ساحة الإعدام، كانت قد بردت الآن فكسرت شوكة عطشه قليلاً، لكن الملوحة لم تغادر فمه.
- يا لحظي السعيد. إنني أمضي ظامئاً إلى الموت، ها أنذا قادم إليك عطشان يا إلهي.
علم الشيخ أن مناجاته التي صدرت عن قلب يعصره الألم لن تصعد أعلى من عمامته الكتانية، وهب أنّها مضت أبعد فلن

تصل خارج ساحة المشانق المنصوبة.

لاحت المشانق من بعيد فبدت قدراً منصوباً من أعمدة وحبال في ساحة أمام مسجد آمد الكبير مقابل باب الجبل.

- ستكون الأرواح ثمارها.

همس الشيخ لنفسه وهو ينظر إليها.

ازداد الضوء رويداً رويداً وازداد معه عطش الشيخ، فيما نقصت المسافة بينه وبين المشانق. من كان يقترب من الآخر في ذلك الهزيع الأخير من الليل؟ الموت صوب الشيخ أم الشيخ صوب الموت؟

ألقت النجوم ضوءها الحزين أمام قدميه. صار يتميّز ملامح الطريق أمامه. لاح الغبار الذي أثارته خطواته في الضوء الخافت للنجوم مثل ضباب يتكاثف. بدأت تلك النجوم التي أمضت الليل توشوش لنهر دجلة أنغامها النورانية تغيب نجمة وراء أخرى. رفع الشيخ رأسه قليلاً وألقى عليها نظرة كئيبة وتذكر مقولة شيخ نقشبندي: "الموت كالشمس، ما إن تشرق حتى تغيب نجوم الحياة".

تذكر أنه منذ يفاعته وهو في تكيّة والده في بلدة بالو كان يحدّق في النجوم باهتمام. كانت نجوم الثريّا أكثر ما يلفت نظره. كان يسمّيها عنقود النور. أمّا نجمة الراعي فكانت أنيسة أمسياته. وحين كان يأوي إلى فراشه في باحة الدار أو على سطح البيت في الصيف كانت نجمة من ألمع نجوم درب

التبّانة رفيقته. سمّاها البيضاء وصار يبثها لواعجه ويستمع إلى أسرارها:

- النجوم أسرار الليل.

أراد الشيخ أن يبعد النوم عن عينيه ويفركهما قليلاً لكن برودة القيد على معصميه ذكّرته بأنّه أسير. أطبق عينيه إطباقات عديدة ثم سأل الجنديين:

- أرأيتما الشهاب الذي هوى؟

واصل الجنديان سيرهما بالسرعة ذاتها وكأنهما لم يسمعا سؤال الشيخ. كانا صامتين وكأنهما يذهبان إلى حتفهما لا إلى حتف الشيخ المقيّد الذي يمسكان بذراعيه. اقتربت المشانق رويداً رويداً. قدرٌ من حبال ومشانق وارتجافات صامتة تسبق الموت كانت تنتظر الشيخ السبعيني.

ازدادت الملوحة كأن مناجم ملح تنهار في فمه.

- ثورتي أيضاً ماتت عطشاً.

أسرَّ في نفسه.

في رمضان تمزقت قربة الثورة وتناثر الثوّار كالسمن المهراق في كل مكان.

كان صائماً حين حاصره الجنود الترك مع رفاقه. ومع أنهم كانوا على ضفة نهر فقد استبد بهم العطش. طفق كل واحد يملأ مطرته لكي يفطر على الماء حين يبدأ الإفطار. لكن أُسروا جميعاً وكسر الجنودُ جرارَهم الصغيرة أمام أعينهم. كانوا ظامئين. أخذوا معهم ظمأهم ذاك حتى المشانق.

حلم الشيخ، خلال أيّام سجنه الخمسة والسبعين، بجرار الماء، بالينابيع والسواقي لكنه لم يكن يظفر ولو بجرعة منها. بقي في أحلامه دائم الظمأ.

تذكر طفولته حين كان رمضان يصادف أشهر الصيف. لم يكن أبواه يوقظانه من النوم لأنه كان دون البلوغ وغير مكلف شرعاً بالصوم، كان أبواه يخافان عليه من العطش الشديد والهلاك في تلك الأيّام القائظة. لكنه كان يصوم بدون أن يتناول السحور. كان حلقه يجفّ من العطش، لسانه يبيضُّ في تلك الأيام الطويلة من آب حيث تبدو الشمس عصيّة على الغروب. كان أبوه الذي أنهكه الصوم يقول غاضباً: هذه الشمس وتدٌ دُقَّ في صدر السماء، ألا يوجد من ينتزعه! كان الطفل سعيد يرشّ الماء على وجهه ويديه، يرتمي أسفل عمود من أعمدة المسجد ويغفو. ينسى عطشه لبعض الوقت وتقترب الشمس قليلاً من الغروب.

تُرى أمام عمود أيّ مسجد سيرتمي الليلة! لم تصبح الدول العظمى أعمدة يلجأ إليها. العشائر الكبرى لم تصبح كذلك. وحدها تلك المشانق والحبال المتدلية منها يمكن أن تقطع عطشه المقدس.

في أيّام شبابه حين كان طالب فقه، كان يشرب الماء المالح مع رفاقه لكي يعطش ثم ينام عطشان. كانوا يعتقدون أن من ينام عطشان يحلم بفتاة تأتي وتعطيه كأس ماء، وستصبح فتاة الحلم نصيبه في الحياة أيضاً. كان يحلم بعد كلّ مرّة يشرب

فيها الماء المالح بفتاة رشيقة القدّ تأتي وتعطيه كأساً. كانت الكأس فارغة في كلّ مرّة.

وها هو يمضي عطشان إلى الموت. تحت لسانه تقبع ملوحة ثورة مغدورة. فبماذا سيحلم! إنه يحلم الآن بالكرد البؤساء. الفلّاحين خلف محاريثهم الصدئة وثيرانهم الهزيلة. النساء اللواتي يحملن على ظهورهنّ القش! الأطفال الذين يركضون في شوارع آمد حفاة وهم يصفرون ويلعبون الغمّيضة. أولئك الأطفال الذين يكتشفون ذكورتهم صيفاً في حقول البطيخ ويذهبون لصيد السراب! الرجال الذين كان الجندرمة يقتلونهم بوضعهم في قدور كبيرة يغلي فيها الماء. القرى التي تتحوّل إلى ركام وأطلال! يحلم بالمريدين وهم يحملون الفؤوس والأطبار ويمضون وراء راية خضراء مرفوعة على رمح. الدخان الذي يتصاعد من القرى المحترقة! صراخ الثكالى وأنين الأطفال الجرحى! إنه يحلم الآن بوطن مدمّر وأطلال حلم كالخيبة. بحبّات الجوز التي كان أحد الدراويش يرميها إلى قباب المساجد ثم يلتقطها وهو يضحك. ازدحم خيال الشيخ بهذه الصور كلها في لحظة واحدة.

ـ لقد كانت ثورتي هذه أيضاً حبّة جوز يا إلهي.

قال الشيخ وهو يبلع ريقه.

أراد أن يطرح على ربّه سؤاله المؤجّل لكنه حين شاهد المسافة بينه وبين المشنقة قال:

- ما زالت هناك فسحة من الوقت قبل أن ينقر طائر الموت روحي.

***

بدأت الطيور التي كانت تحلم طوال الليل بنقر الحبوب تزقزق وهي ما تزال مغمضة العينين. جاءت أنغام خافتة حزينة من جهة أشجار الحور النامية على ضفاف دجلة. إنها الطيور تفشي سرّ صباح جديد، تبشر بشروق وشيك لشمس عنيدة دون أن تدري بوجود مشانق قريبة وأعناق توشك أن تلتف عليها الحبال. شمَّ الشيخ رائحة صباح لن يأتي. شعر بالموت قادماً يدبّ بحذائه الثقيل.

- يا ربّ.

قال الشيخ بصوت مسموع. واصل الجنديان اللذان غالبهما النعاس سيرهما بالسرعة ذاتها دون أن يأبها بما قاله أسيرهما.

كانا مرهقين. استبدّت بهما رغبة عارمة في النوم وكأنهما لم يتذوّقا النوم في حياتهما قطّ. تمنّيا أن ينهيا عملهما سريعاً ليطلقا خراف الخيال في برّية النعاس.

فاجأهما الشيخ:

- اصبرا قليلاً. سينتهي الأمر كما تشتهيان. صدّقاني فإن طلوع روحي لن يستغرق كثيراً من الوقت. سيكون الأمر مثل ثورتي.

لم يردّا عليه. أكان لعدم رغبة منهما أم لأن التحدّث إليه كان ممنوعاً أم ربّما لأنهما لا يريدان أن يسلياه ويتجاذبا معه آخر حديث في حياته! لم يدر الشيخ أيّ احتمال هو الصحيح. لكنه كان في تلك الدقائق بحاجة إلى شخص يتحدّث معه ولو قليلاً ويزيح همّاً جاثماً على صدره.

كان يحدّث الله بقلبه. لكنّ الله لم يكن ينفض معه بساط الحديث. صار الشيخ يحدّق بقلبه مع كل ما حوله، مع النجوم، مع السماء، مع الليل، تحدث مع سنوات عمره الذي مضى أيضاً.

سار صامتاً. لكن آلاف الأحاديث والأخيلة والذكريات والوقائع تلاطمت في ذاكرته. لم يعد يسمع أيّ صوت سوى صوت عمره الذي يسير إلى النهاية. لم يعد يرى أيّ لون سوى لون ذلك الليل الشبيه بذئب جبلي.

ـ أما من أحد يقتل هذا الذئب؟

سأل خياله. لكن الفجر الذي كان يفترض أن يرمي ذئب الجبال بسهامه، ذُبح مثل خروف أمام تلك المشانق.

***

فجأة رأى نفسه وجهاً لوجه أمام صف من المشانق. كانت الساحة مثل مسلخ علقت فيه الخراف المذبوحة بخطاطيف. كانت تلك مشانق عالية من خشب الحور النامي على ضفاف دجلة. كانت المشانق قريبة جداً بحيث لو نفخ أحدهم لاهتزت

الحبال.

لم يبق بين الشيخ وحبل مشنقته سوى خطوات ثلاث. خطوتان إلى المنصّة ثم خطوة ثالثة وأخيرة إلى الكرسيّ الموضوع تحت الحبل. لم يبق بينه وبين الموت سوى ثلاث خطوات إذاً. لم يبق بينه وبين الله أيضاً سوى ثلاث خطوات. إنها ثلاث خطوات فقط ويصل إلى حبل المشنقة. يصل إلى حافة يروي ظمأه فيها ويفقد كلّ أمل في النجاة.

لمع الزيت الذي دهنوا به الحبل في ضوء النجوم كما تلمع ثورة.

- كل ثوراتنا التي نشبت، لم تكن سوى بندقيتين أطلقتا النار بدون تناغم ثمّ تبعتها المشانق.

قال الشيخ في سرّه وقلبه ينبض آخر النبضات.

كثيراً ما سمع من مريديه وخاصّته أيضاً أن حركته ستكون مثل ما سلفها من حركات تمرّد، حبّة جوز تُلقى على ظهر قبّة فلا تستقرّ عليها. كانوا يقولون: نحن الكرد نخوض الثورات تماماً كما يدخل العميان حلقة رقص: فلا هم يعرفون أين يضعون أقدامهم ولا هم يعرفون أين رأس الدبكة ولا هم يعرفون لماذا انعقدت حلقة الرقص؟

كان الشيخ على ثقة هذه المرة بأن الأمر ليس رقص العميان، فقد عرف الناس حقوقهم ويعرفون ماذا يفعلون. قال لمن اعترض على الثورة:

- سأدعو إلى حلقة رقص كبيرة، لن تحضرها قرية واحدة فقط، لن يحضره وطن واحد فقط، بل إن الدنيا كلها ستشارك.

اقترب الشيخ أكثر من المشنقة فاهتز الحبل المنتهي بحلقة معقودة بتأثير الهواء الذي أثاره قفطانه.

ثلاث خطوات إلى المشنقة.

من ذا الذي يستطيع أن يمضي رابط الجأش، يخطو هذه الخطوات الثلاث ويعهد برقبته إلى هذا الحبل المتدلي! كانت الأرض سكرى تحت رجليْ الشيخ. خجلت المشانق حتى كادت تهوي. أشاح الليل بوجهه خجلاً وغارت النجوم حتى لا تصبح شهوداً على مذبحة الربيع. أنسام الليل البهيم صارت تلاعب لحية الشيخ الذي بقي بينه وبين ربّه ثلاث خطوات.

لم يبق بينه وبين تلك المشانق التي كان التاريخ يئنّ تحت وطأتها، والآمال تحترق مثل تبغ في غليون، سوى ثلاث خطوات.

استطاع أن يميّز، رغم الظلام، الأنشوطة المتدلية التي تنتظر رقبته. نظر من خلالها إلى الضفة الأخرى لثورة يتيمة، نظر إلى سماء خرساء ومظلمة. بدت حلقة الحبل مرآة نظر فيها إلى سنوات حياته السالفة كلها.

لمح في منتصف الحلقة نجمة توشك على الأفول. وكمن يسدّد على هدف بعيد أغمض إحدى عينيه ونظر من خلال الأنشوطة التي بدت مثل سدادة بندقية إلى تلك النجمة. كانت

ترتعش. تخيّل الشيخ أن الشمس ستشرق بعد قليل وتزيح كل النجوم كمكنسة ذهبية فقال في سرّه:
- والثورات تكنسها المشانق.
ارتعشت النجمة أكثر. صارت مثل قلب عصفور خائف.
ابتسم الشيخ. قال للجنديين الممسكين به: "انظرا إلى ارتعاشة هذه النجمة الخائفة. إنها لا تدري أنّها ستلمع غداً أيضاً". لم ير الجنديّان أيّ نجمة. بقيت نظراتهما معلقة إلى سماء حالكة السواد.
تدلّت من المشانق عشرات الأجساد. نشيج الحناجر المخنوقة، ارتعاشات ما قبل الموت، لفّت سكون الليل برعب عميق.
كان بعض من يُعدَمون يجأرون بالدعاء إلى الله، بينما بدأ قسم منهم يصدح بكلمته الأخيرة فيشقّ بها بطن الليل، بينما كان قسم آخر يسلّمون رقابهم بصمت إلى الحبال ويتدلّون من المشانق كعناقيد عنب في كرم منسيّ أواخر الخريف.
- إنهم ضيوف عرشك يا الله. قرابين مذبحك هؤلاء يا ربّ.
أسرّ الشيخ وهو ينظر إلى السماء التي بدت من فوقه مثل رحى طاحونة سوداء.
بقيت ثلاث خطوات فقط إلى تلك المصطبة الخشبية التي تنتصب فوقها مشنقته.
خطوة، اثنتان، ثلاث ثم الموت. ولكن أيّ موت! خنق بحبل مشنقة يلتفّ على حلق أرهقه ظمأ مثل برّية شوك في ليلة

مظلمة كفرو ذئب. مقيّد اليدين صامتاً هربت منه الحروف.
كانت المصطبة الخشبية ترتفع قليلاً عن مستوى الأرض. وُضعت خشبتان كيفما اتفق مثل درج. وتحت الحبل المتدلي وضع كرسيّ بثلاث قوائم من خشب الخيزران مرتفعاً بمقدار ذراع. لم يكن ثمّة مسند في ذلك الكرسي الذي أعدوه ليصعد عليه الشيخ. كرسيّ سيصعد عليه بعد قليل وسيركل أحد الجنديين اللذين يمسكان به الآن قائمة من قوائم الكرسي. خطوة، اثنتان، ثلاث خطوات وسيلتفّ حبل المشنقة على الرقبة.
أراد الشيخ أن يلتفت إلى الوراء ليرى كم خطوة خطاها من باب السجن إلى ساحة الإعدام لكنه قال في سرّه: لقد مضت تلك الخطوات. إنها لم تعد خطواتي. ليس لي إلّا هذه الخطوات الثلاث الباقية فهي خطوات تختصر سبعين عاماً. هي حياتي كلها. ثم قال بصوت مسموع:
- بسم الله.
وضع الشيخ الظامئ قدمه على أول درجة وخطا الخطوة الأولى إلى المشنقة.
تقابلت قامته النحيلة مع حبل المشنقة الشبيه بحرف ألف.

الخطوة الأولى

"ينهل الترك من الفرات والنيل

أمّا أنا فأتّجه إلى البحر ظامئاً."

الشاعر الكردي الجزيري

لم يكن يتذكّر خطوته الأولى في الحياة. لكن أمّه روت له مرّات عديدة بفرح عن أول خطوة خطاها:

"لم تكن قد أكملت عامك الأول حين بدأت المشي. أمسكت بيديك وغنّيت لك ثم تركت يديك فبدأت تخطو. صرخت بسرور:

- سعيد بدأ المشي.

كنت واقفاً على قدميك مثل سنجاب مذعور قبل أن تخطو الخطوة الأولى. كنت باسطاً ذراعيك كأنك تريد الطيران. امتزج لديك الخوف باللهفة بالسعادة في خطوتك الأولى. مع الخطوة الثانية ازداد خوفك. وبعد أن خطوت الثالثة تسمّرت في مكانك. كنت تخاف أن تجلس أيضاً. الخطوة الثالثة أرهقتك كثيراً. أمسكت بيديك ثانية فانخرطت في البكاء.

بعد أن مضت عدّة أيّام على أولى خطواتك احتفلنا بالمناسبة. دعوت النساء وأولادهن إلى بيتنا. ربطت قدميك بخيطٍ واهٍ ثم أعطيت طفلاً يافعاً حفنة من السكاكر والزبيب وعقود التين والجوز. ركض الطفل فلحق به بقية الأطفال ولاحقوه. مشيت

أنت أيضاً خطوات كثيرة دون أن تتوقف. كنّا نعدّ خطواتك في البداية، كنا نقول: سعيد خطا اليوم أربع خطوات دون أن يقع، عشر خطوات أن يجلس، ثم لم تعد تصبر دون أن تملأ الدار بوقع خطواتك. لم نعد نعدّها".

- اليوم سيلتفّ الخيط على رقبتي لا على قدميَّ.

قال الشيخ لنفسه حين اقترب من الحبل. كانت حلقة الحبل تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال. كانت تخفي بتأرجحها تلك النجمة المرتعشة. كان الشيخ يلاحق النجمة لكي لا تغيب عن ناظريه. كان يضطرّ لأن يحرّك رأسه مع حركة الحبل لكي يرى تلك النجمة اليتيمة التي نسيها الليل في سماء آمد تماماً كما نسيت الدول رقبته ورقاب رفاقه.

كانت الأجساد المتدلية من المشانق تهتز مع هبوب نسمات رخيّة. بدت أثواب المشنوقين مثل مراوح ترفعها تلك النسمات. عرفهم الشيخ واحداً واحداً. انعصر قلبه مثل حبّة عنب بين أنياب ثعلب:

- اللهمّ إنّ هؤلاء ثمرات الثورة فتقبّلهم منّا قرابين لك.

بدأ حذاء الشيخ يضيق على قدميه. وزادت الحصاة الصغيرة في الحذاء الأيسر جرحه ألماً على ألم.

أوشكت النجمة التي كانت تلوح من خلال حلقة الحبل على الانطفاء. عرف الشيخ أن الليل تأخر كثيراً، اكتشف من خلال ارتعاشة النجمة أن الليل في دقائقه الأخيرة.

أراد أن يعرف كم الساعة. أراد أن يمدّ يده إلى ساعة سركيسوف الفضّية الموجودة دائماً تحت حزامه لكنه سرعان ما أدرك أن يديه مقيّدتان.

- حتى لو لم تكن يداي مقيّدتين لما عرفت كم الساعة. ساعتي ليست معي.

لم يسمحوا له بأن يأخذ ساعته معه إلى لقاء الموت. أخذوا منه صداره والساعة التي في جيب الصدار وهو ما يزال في زنزانته. كان يضبط ساعته كل غروب شمس على الثانية عشرة بالتوقيت العربي. تُرى أيّ جندي يضعها الآن في جيبه؟

- هل سيهتمّ بها ويعرف قدرها؟ هل سيحوّلها إلى التوقيت الإفرنجي؟

كان الشيخ يمسح زجاجها كل صباح، كان يمسح عنها غبار الثورة ويقول: ليتنا نحن الكرد عرفنا مثلك ما هو الوقت وكيف يمضي الزمن! أمّا في المساء فقد كان يخرجها من جيب صداره، يضعها بجانب رأسه. كان ينظر أحياناً على ضوء المصابيح إلى صورة القطار على الغطاء. يرفع الغطاء فيرى الطائر الأحمر، علامة سركيسوف، فارداً جناحيه كأنه يريد الطيران. كانت دقات تلك الساعة تؤنسه.

ذات مرّة تمازح هو والشيخ شريف، سخر أحدهما من ساعة الآخر. قال للشيخ شريف: "أراهن أنك لن تجد ساعة أكثر دقة من سركيسوف". ردّ الشيخ عليه الشيخ شريف: "أتحسب

نفسك خبير ساعات! ساعتك ماركة سركيسوف الروسية لا تساوي قرشاً أمام ساعتي سيمير السويسرية".

ردّ عليه الشيخ سعيد بتحسّر: "ربّما جمعوا قطعها في لوزان لذلك فهي دقيقة. لقد ضبطوا دقاتها على دقات ساعة أتاتورك في أنقرة".

أراد أن يسأل الجنديين عن الوقت لكنه سرعان ما تراجع عن الفكرة وقال في نفسه: "ربما يظنان أنني أسأل من خوفي. فلأذهب إلى الموت إذاً دون أن أعرف كم الساعة".

ومع ذلك فقد خمّن أن الساعة تراوح بين السابعة والثامنة بالتوقيت العربي.

- بعد حوالى ساعتين سيرفع مؤذن مسجد بهرام باشا أذان الفجر. لكنني لن أسمعه، لن أصلي الفجر للمرة الأولى في حياتي.

قال الشيخ بصوت مسموع. تبادل الجنديان النظرات لكنهما لم يتكلما.

لم تكن صلاة الفجر لتفوت الشيخ أبداً. وقد واظب عليها حتى حين كان ينتقل من قرية إلى أخرى في الربيع الفائت. كان يحب صلاة الفجر ويقول:

- في الفجر ترتفع الحجب بين الله وعبده.

تذكر الأذان الذي رفعه قبل لحظات رفاقه المساجين الذين كانوا ينتظرون مصائرهم. كانوا كلما توجّه أحد السجناء إلى

ساحة الإعدام أذنوا وراءه. هو أيضاً أذّن وراء رفاقه الذين تتدلى أجسادهم الآن من المشانق.
قبل بضعة أشهر، حين دخل بعض الثوّار إلى قلب مدينة آمد وقتلوا بعض الجنود، نهض أحد الأئمة وارتقى مئذنة مسجد علي باشا وبدأ يؤذن. لم يكن قد حان وقت أيّ صلاة لكنّه أذن فرحاً بقدوم الثوّار.
صوته الجهوري وصل حتى خارج أسوار المدينة وأدرك الجميع أن شيئاً ما يحدث هناك.
صباحاً قتل الجنود ذلك المؤذن طعناً بالحراب. قالوا له وهو بين الحياة والموت:
- هيه يا شيخ. قم أذّن.
ثم غرزوا آخر حربة في حنجرته.

***

حين كان في السابعة من العمر طلب منه والده أن يؤذن.
- أنا أخجل.
قال لأبيه. غضب أبوه وقال بحدّة:
- عليك أن تخجل من المعاصي لا من الأذان يا ولدي.
قام مضطراً ورفع الأذان بصوته الطفولي:
الله أكبر. الله أكبر.
نهض المريدون جميعاً إلى الصلاة.
- أذنت البنادق لصلاة الثورة فلم يأت الجميع.

فكّر الشيخ.
- تقام الصلاة في المساجد بعد وضوء سريع بالماء. أمّا صلاة الحرّية فتحتاج إلى وضوء بالدم. لذا لا يحضرها إلا القلة.

***

توضّأت روحه بالليل الذي جرف آمد بأمواجه ثم صلَّت على سجّادة من نور خياله.
سأل أباه ذات مرّة حين كان طفلاً:
- لماذا نغمض أعيننا يا أبي أثناء التوجّه والختمة والرابطة؟[2]

[2] الختمة جلسة يجتمع فيها مريدو الطريقة النقشبندية عصر كلّ يوم حيث يقومون بالذكر الخفي وأعينهم مغمضة. أما الرابطة فهي استحضار فردي لصورة الشيخ يقوم به المريد عقب كل صلاة مغرب ومن شروطها أن يغمض المريد عينيه أو يسدل على وجهه ستارة تمنعه من رؤية ما حوله. والتوجّه حلقة ذكر أسبوعية تقام يوم الاثنين حيث يحضر شيخ الطريقة بنفسه ويبارك المريدين بالتطواف عليهم في حلقة الذكر التي من شروطها كذلك أن يبقى المريد مغمضاً عينيه حتى ينتهي الذكر.

- حين يغمض المرء عينيه تنفتح نوافذ الذهن. هكذا هي الطريقة يا ولدي: على المريد أن يحرم نفسه من كل شيء ليحظى بكلّ شيء. المريد هو ذاك الذي يملك كلّ شيء ولا يملكه شيء. عدم تملّك المريد لشيء هو ملكه الأعظم. وحين يحرم المرء نفسه من نور البصر يعرف حقيقة الكون. فالقلب يرى أكثر من البصر.

كان يغمض عينيه عقب كل صلاة عصر ويلهج بذكر "يا باقي أنت الباقي". أمّا بعد صلاة المغرب من كل يوم فكان يستحضر صورة الشيخ خالد النقشبندي. هو لم يره لكنه رسم له صورة في خياله، تخيّله رجلاً نوراني الملامح بلحية طويلة. أمّا في أيّام الاثنين فكان يدخل حلقات ذكر يغمض عينيه خلالها لفترة طويلة.

ذات يوم قال له أحد مريدي تكيّة والده بعد أن خرجا من الختمة:

- أَزْبَني علينا أن نفتح أعيننا لنرى ماذا سيحدث![3]

[3] أزبني كلمة احترام كردية مركبة من أز بمعنى أنا، وبني بمعنى العبد والغلام. وهذا كلام يخاطب به المريدون شيوخهم وأبناء شيوخهم وكذلك الأقل قدراً لمن هم أعلى قدراً وترجمته: جعلت فداك، أو روحي فداك.

في اليوم التالي لم يغمض الاثنان أعينهما خلال الختمة، نظرا بخوف إلى الشيخ محمود والد الشيخ سعيد وهو يردّد ذكر (سبحان الله والحمد لله). وبعد أن انفضّت الختمة وخرجا قال أحدهما للآخر:

- ها هي أفواهنا كما هي. لم يصبها الاعوجاج.

كان المريدون يخافون اعوجاج أفواههم إن هم تحدثوا عن الشيوخ بسوء أو فتحوا أعينهم خلال حلقات الذكر.

اليوم لا يصيب الاعوجاج فم أحد. الشيوخ أنفسهم صاروا يتدلون من المشانق وأفواه من يعدمهم سليمة كما هي.

الأفواه التي تتقن مخاطبة العالم أصلاً هي أفواه من يدفعون الليلة هؤلاء المشايخ إلى المشانق، ها هي أفواه المشايخ تتلوّى في حضرة الموت.

***

غشيَ النعاسُ الجنديين الممسكين بالشيخ بتأثير رخاء الهواء الذي لفّ حبال المشانق ساعة السحر تلك. نعس الشيخ أيضاً. كان ذلك هواءً ناعماً مخادعاً، هواءً عاشقاً، تارة خجولاً وتارة أخرى جريئاً وقحاً، لم يكن كردياً، بل كان هواءً قادماً من أحضان أرواح جبّانة تريد دفع الشيخ إلى النوم.

- لا. الحياة تستحق أن يعيشها المرء بعيون مفتوحة حتى الثانية الأخيرة. سوف أتابع حركة النجوم، سأرى الفجر الذي يوشك أن يولد. سأرى قامات أولئك الأبطال من المشايخ وهي تتدلى من المشانق. سأكحّل عينيّ بأرواحهم الطاهرة. سأسمع كلماتهم الأخيرة قبل الموت. سأرى النجوم التي تقاوم. سأنظر كذلك في عيون الجنود وهم يستمعون إلى الحشرجات الأخيرة للمشنوقين.

لمح مرة أخرى الحبل الذي يواجهه ويهتز بتأثير الهواء الذي أثاره قفطانه.

آلمت الأصفاد معصميه لكنه لم يأبه بها. شعر بالألم حين لم يقدر أن يمسح لحيته بيده.

أراد أن يصلح حال عمامته حين أحسّ بها مائلة قليلاً. تذكّر عندما كان يجلس في حجرته ويلفّ عمامته الكتّانية البالغة عشرين ذراعاً. كان يلفّ الكتان المتكوّم في حضنه على قالب معدني ويشدّها حتى تصبح جاهزة. لم يضع عمامته عن رأسه حتى وهو يقاتل.

- الموت سلطان وعلى المرء أن يذهب للقائه في أبهى حلة.

مال برأسه مرّتين صوب اليسار فمالت عمامته. أدرك أنها باتت في وضع أفضل الآن. تنفّس الصعداء.

كان والده الشيخ محمود قد لفّ له العمامة أول مرّة ووضعها على رأسه قائلاً:

- يا بنيّ إن العمامة تاج العالم، لكن عليك أن تعلم أن الأهمّ هو ما في رأسك من علم لا ما على رأسك من قماش.

***

لثمت الأنسام القادمة من جهة دجلة عمامة الشيخ البيضاء الملفوفة بإتقان على رأسه ثم هزت تلك الأنسام أجساد المشنوقين. بعثرت كذلك شعرات لحيته البيضاء فتذكّر مشطه. ذلك المشط المصنوع من خشب الجوز لم يكن يفارقه أبداً. كان مشطاً دقيق الأسنان بنّي اللون مقوّساً أحضره والده له ذات مرّة من مدينة أرضروم من حانوت صديقه الأرمني سركيس بوغوصيان. قدّم سركيس للشيخ محمود مع ذلك المشط كثيراً من الهدايا الأخرى، لأولاده الذكور خواتم فضّة

ولبناته مناديل الموسلين.

قبل تسفير الشيخ سعيد من بلدة كِمْكِمْ[4] إلى آمد، صادر الجنود كثيراً من مقتنياته الشخصية كان من بينها ذلك المشط الصغير. طلب منهم الشيخ أن يعيدوا له على الأقل مشطه لكنهم لم يصغوا إليه.

4 Gimgim بلدة كرديّة في تركيا سكانها من الكرد الزازائيين.

بعد مضيّ فترة على اعتقاله، رأى الشيخ سعيد في أحد الأيام مشطه ذاك في يد مدير السجن. كان قد اتسخ وامتلأ بالشعر. قال الشيخ لمدير السجن: ”هذا هو مشطي. هلّا أعدته لي؟“ نظر مدير السجن إليه مستغرباً وقال: ”كنت تطالب بحقوق شعب والآن تطالب بمشط لا قيمة له؟“ ردّ الشيخ بكل هدوء: ”لست الوحيد الذي يطالب بحقوق هذا الشعب. وهو لن يصبح يتيماً بموتي. لكنّ هذا المشط ملكي الشخصي. كيف أراه في يدك ولا أطالب به؟“ لم يجبه مدير السجن. مضى في حال سبيله وهو يمشط شاربيه.

ناداه الشيخ بحرقة:

- على الأقل لا تتركه يتسخ.

مذاك والشيخ يمشط لحيته بأصابع يده. يمشطها إلى الأسفل ثم يغرز أصابعه في لحيته من الأسفل ويرفعها إلى الأعلى كما اعتاد أن يفعل مع كل وضوء.

- ليت ذلك المشط رافقني إلى هذه المشنقة.

كان يتمنّى لو كانت كل أشيائه معه في هذه اللحظة لتصبح شهوداً على تلك الجريمة، كان يتمنّى أن يوشوش لها بحزنه وآلامه وأسراره ثم يضع رقبته في الحبل.

قطعة السماء التي كانت تلوح من خلال حلقة الحبل، ازدادت وضوحاً. لم يعد يرى تلك النجمة جيّداً وبدلاً منها رأى نجمة في حضن هلال فوق قماش أحمر يرفرف فوق تلك الكنيسة القديمة التي كانت مقرّاً لمحاكمة الشيخ ورفاقه. انتفض قلبه مثل حمامة في شرك.

كان جسد الشيخ علي الجاني الذي أعدم للتوّ يتأرجح بتثاقل شديد.

- أيّتها المشنقة. ها تفوح منك رائحة الخمر التي احتسوها في لوزان. هناك، في تلك البقعة النائية عن بلادنا التي لن تظلل أشجارها أراملنا وأيتامنا، هيّأوا لنا هذه المشانق. هذه المشانق صُنعت من خشب الطاولات التي رسموا فوقها أقدارنا المطروحة عليها كجلد ثور عجوز.

قال الشيخ لنفسه وهو يحدّق في سماء خالية.

حين كان طفلاً يافعاً، أضجر والده بالأسئلة:

- كيف هو الله؟

- الله كبير يا ولدي.

- هل هو أكبر من السلطان؟

- نعم يا ولدي. أكبر من كل شيء.

"إنه أكبر من هذه المشانق أيضاً؟". هوت هذه الجملة في مخيّلته مثل كسف من الثلج.

جال الشيخ ببصره في السماء الخرساء مرة أخرى. لم يجد أثراً لمعجزة.

- هذا ليس زمن المعجزات يا سعيد.

همس في قلبه.

في طفولته سمع كثيراً من قصص كرامات الأولياء وشيوخ الطريقة النقشبندية. سمع المريدين يتحدثون عن كرامات أبيه وجدّه.

- حين يكون الشيخ في جبهة حرب ضد الروس، ينكسر الروس بلا شك. ذات مرة حوصرت فرقة من الجيش العثماني بالقرب من قارص وكاد القوزاق يبيدون عناصر الفرقة بالسيوف. وفجأة ثار غبارٌ من بعيد. كان ذاك أحد خلفاء الطريقة النقشبندية. صرخ الخليفة مرّتين: الله أكبر، فانهزم القوزاق وصاروا مثل كرة ثلج سقطت في النار. تفرّقوا ولم يعد لهم أثر.

كان ذاك زمن المعجزات والكرامات. حتى إن سلاطين آل عثمان كانوا يرسلون الرسائل إلى الشيوخ العظام يطلبون منهم الدعاء والعون. كان الشيوخ يقومون بواجبهم خير قيام طاعةً للسلاطين فيحبّبون جهاد الكفار وقتالهم إلى الناس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كانت للشيوخ مهابة واحترام في كل مكان. كانوا هم بوّابي الفراديس التي لم تخطر على بال البشر، كانوا الجسور التي توصل المرء إلى نعيم سرمدي، كانوا هم العلاج لأمراض الجسد والروح، كانوا حملة مفاتيح الأبواب الموصدة. والآن! ها هي مفاتيح موتهم صارت بيد حفنة من الجنود.

- إلهي. ها هي رقاب كثيرين من الشيوخ في الحبال.

نظر مرّة أخرى إلى جسد الشيخ علي الجاني يتدلى من المشنقة. بدا أنه قاوم الموت كثيراً. سقطت فردتا حذائه بعيداً عنه واتّجهت أصابع قدميه صوب الأرض بحدّة كأنه أراد أن يلامس بها الأرض ليفلت عنقه من الحبل اللعين.

امتزجت المرارة بالملوحة التي كانت في فمه كأنّ صيفاً ولد في حلقه وبرّية رمل لاهب تمتدّ في فمه.

شمالاً كانت ينابيع نهر دجلة تمور بالماء، وهنا الشيخ ينتصب أمام مشنقته ظامئاً مثل نبتة عوسج.

ها أنذا ظامئ يا رب.
ها أنذا قادم إليك ظامئاً
أقف على عتبة موتي ظامئاً
ظامئاً مثل بقيّة حقل آخر الصيف.

***

قبل عدة أيام زاره الشيخ علي الجاني في زنزانته وقال له: "أزبني يبدو أن هؤلاء سيأخذوننا إلى المشانق" ردّ عليه الشيخ سعيد: "وما بها المشانق؟ أننتظر عمراً ثانياً؟ لو كنّا

نبحث عن العمر المديد لبقينا في قرانا نكتفي بإرشاد الناس إلى الطريقة ولعلمناهم كيف يطهّرون آبارهم التي سقطت فيها القطط والفئران وبيَّنا لهم الحلال والحرام أو لجمعناهم في حلقات الذكر. لقد أشعلنا ثورة يا أخي، ثورة. وفي هذه الثورة تقابلنا مع الموت عشرات المرات. لا تقل لي إنك تخاف الموت يا شيخ علي؟".

خجل الشيخ علي قليلاً ثم قال: "معاذ الله يا شيخ سعيد. أهلاً وسهلاً بالموت. لكنني حزين أنني سأموت مقيّد اليدين أسيراً. أمّا في القتال فلا أحلى من الموت".

ردّ عليه الشيخ حزيناً:

- الموت موت يا شيخ علي. الموت موت سواء كان بالسيف أو بالخنجر أو بحبل المشنقة. لكني أنصحك بأن تقاوم حين يأخذونك إلى المشنقة، لا تسلّم رقبتك بسهولة لحلقة حبل المشنقة واقرأ آية "كلّ نفس ذائقة الموت".

***

قرأ الشيخ في سرّه آية "كل نفس..." وتخيّل موته المنصوب مثل فخ أمام قدميه اللتين لم يبق لهما كثير من الخطوات.

احتدّ الجنديان الممسكان بذراعي الشيخ. كانا يتصرّفان كأنهما هما اللذان سيُشنقان بعد قليل. عصر كلّ واحد منهما ذراعيه بعنف.

تلفّت الشيخ ذات اليمين وذات الشمال ونظر بامتعاض إلى وجه الجنديّين في ذلك الظلام فرأى بندقيتيهما تكادان تنسلتان عن كتفيهما، رأى كذلك أزرار قميصيهما تلمع في الظلام كعيون الفهود.

لم يفهم لم توحّش الجنديان فجأة وعصرا ذراعيه كلّ من طرفه!

- ربما يخافان من الموت؟

قال لنفسه وهو يرثي لحالهما.

تذكّر الأضاحي المعدّة للذبح في عيد الأضحى. كان المريدون يأتون بالخراف والعجول والغنم والماعز إلى بيتهم وهم يجرّون تلك الحيوانات بعنف من قرونها وآذانها بينما تصرخ وكأنها تعرف أنهم يأخذونها للذبح بسكاكين حادّة.

كان القصّابون يأتون في صبيحة يوم عيد الأضحى، فيقول لهم والد الشيخ سعيد:

- فلتحدّوا سكاكينكم ولا تذبحوا الحيوانات بعضها أمام أعين بعض. قيّدوا قوائمها لئلا تتعذب.

ها هي المشانق تُنصب في هذه الساحة وها هو الشيخ ورفاقه يصبحون أضاحي هذه الليلة في عيد جمهوريّة وليدة. كلّ أضحية تُذبح أمام أعين الأضحية الأخرى.

- أعمدة هذه المشانق من أشجار الحور.

كان الشيخ يعرف تلك الأشجار من رائحتها. كانت أشجاراً منزوعة القشر عن جذوعها حديثاً، بقي جذع وحيد بقشره

وكأنهم كانوا مستعجلين في إعداد المشانق فتركوه كما هو.
كان الشيخ ورفاقه المسلحون يتفيّأون ظلال تلك الأشجار على ضفة نهر دجلة قبل عدّة أشهر. نصب المريدون ثلاثة جذوع وعلقوا عليها قدر طعام ثم أشعلوا تحته النار. وحين سألهم الشيخ: "أتعرفون لمن تعود ملكية هذه الأشجار؟" ظنّ المريدون أنّه سيقرِّعهم على فعلتهم باستعمال تلك الجذوع دون أن يدفعوا ثمنها لأحد. قال أحدهم: "أزبني لم نعرف من هو صاحبها، ولو عرفناه لدفعنا له ثمن هذه الجذوع التي قطعناها". ضحك الشيخ، مشى حتى صار قريباً من قدر الطعام، انحنى فوقه ثم أمسك بأحد الجذوع الثلاثة وقال:
- هذه الأشجار من أملاكي.
ثم أخرج من أحد جيوبه ورقة صفراء قاتمة الصفرة اهترأت أطرافها وقد ختُمت في أسفلها بخاتم كبير، فرش الشيخ الورقة ثم قال لمن حوله:
- وهذا هو طابو هذه الأرض التي نحن فيها.
كان والده يملك أراضي كثيرة في تلك الأنحاء. في بالو، خنوس، أرغني، آمد، موش وحتى وان أيضاً. لم يكن الشيخ يعلم أين تنتهي حدود أملاك عائلته. كانت لهم أملاك حيث وُجد لهم مريدون.
- من رائحة هذه المشنقة أعرف أن خشبها من جذوع أشجار الحور العائدة لنا. أشجار الحور التي كنا نتفيّأ ظلالها قبل عدّة أشهر.

قال الشيخ جملته تلك بعد أن ملأ رئتيه عدّة مرات بالرائحة التي فاحت حول المشانق.

***

كان سقف الحجرة التي كبر فيها من جذوع الشجر. جذوع مستقيمة وضعها البنّاؤون السريان فوق جذع ضخم من شجرة توت في وسط السقف.

في الأمسيات، قبل أن تنسج عيونه بساط النوم، كان يلتهي بعدّ تلك العمد. كان بعضها قد تشقق بفعل الجفاف فاستوطنت فيها الحشرات. وأحياناً كان يسمع خشخشة مجهولة من السقف فيظنّها خشخشة فأر لكنّه سرعان ما يستدرك بخوف: "لا. هذه أفعى. صوت زحف الأفاعي واضح فهو يطول لبرهة بينما خشخشة الفئران خاطفة سريعة".

كبر معه الخوف من الأعمدة وما فيها من حشرات وزواحف وقوارض. لم يكن يعلم أنه سيقف ذات يوم أمام ثلاثة عمد منتصبة ويرى أمام عينيه عشرات الأصدقاء والمعارف يُعلّقون بالمشانق.

في أيّام الشتاء والربيع، حين كانت الغيوم تظهر فنونها المائية للأرض العطشى، كانت أعمدة السقف تتحوّل إلى ينابيع صغيرة تدلف ماءً عكراً، تسليه قليلاً حين تسقط في الأواني النحاسية المنثورة في أرض الغرفة فتصدر صوتاً أنيساً وتذهب عنه رهبة الليل.

تذكر أنه في كثير من الأمسيات، وقبل أن تتعثر عيناه مثل قطاتين بفخاخ النوم، كان يحدّق في الصور التي رسمتها تلك القطرات على أعمدة السقف. كان يرى فيها أنواعاً كثيرة من الحيوانات، غزلاناً وثعابين وحماماً. أمّا الصور الناقصة فقد كان خياله يتكفل بإكمالها بعون من الضوء الخافت للسراج.

تذكر كيف كان المريدون يصلحون حال السقف لمنع القطر، تذكّر كيف أن مريداً منهم كان يجرّ وراءه على السطح مدحلة حجرية وكيف أن عامّة الناس كانوا يتداولون في ما بينهم أن مدحلة بيت الشيخ تسير وحدها.

***

تدحرجت مدحلة خياله بصمت على سطح عمره. امتدّت ذكريات الطفولة أمامه مثل بساط عجمي. هاجت الذكريات كقفير نحل حين تمتدّ إليه براثن الدببة.

ذات يوم اصطحبه أبوه إلى أرضروم المرميّة مثل بيضة قطاة في ذلك الشمال المشتعل، هناك كان العثمانيون والروس، الكرد والأرمن يتناوبون على ملكية تلك البيضة.

وقتها كان الروس قد انسحبوا منها لتوّهم ولم يتركوا خلفهم سوى الثلوج.

- هذه ثلوج الكفار الروس يا ولدي.

قال له أبوه الذي يمسك بيده.

- لماذا لم يأخذوها معهم؟

سأل الطفل سعيدٌ أباه.

- ثلوجهم تفيض عن حاجتهم يا ولدي. الروس هكذا. أنّى ذهبوا تركوا خلفهم الثلوج.

- وجيشنا يا أبي؟ ماذا يترك وراءه؟

كان سؤاله كرة ثلج رماها في وجه أبيه. تلفّت الأب حوله قليلاً ثم انحنى عليه وهمس في أذنه:

- جيش آل عثمان يترك وراءه المشانق يا ولدي.

صمت الطفل سعيد. عرف والده أنه لم يستوعب الكلام. أراد أن يبهج قلبه فسأل:

- أتريد أن تركب الزلّاجة؟

- زلّاجة ثلج؟

- نعم يا ولدي. سآخذ لك الآن واحدة.

ومضى الاثنان في ذلك الصباح البارد إلى مركز المدينة يتبعهما بضعة مريدين عاقدين أيديهم احتراماً. وما إن لمحهما سركيس بوغوصيان الحانوتي حتى نهض ونادى:

- شيخ محمود أفندي!

ابتسم والد سعيد. أسرع في مشيه. تأخّر سعيد قليلاً، كان ينظر إلى الحوانيت ويسمع جلبة أصحابها. وضع بعضهم السماور على طاولاتهم يرتشفون الشاي من كؤوس رشيقة نحيلة الخصر وهم يبتسمون.

***

دخل والده حانوت سركيس بوغوصيان الأرمني. بقي المريدون بعيون نصف مغمضة وأيدٍ معقودة في الخارج. ألقى سركيس بساطاً صغيراً من فرو الخروف على كرسيّه ودعا الشيخ محمود للجلوس ثم وضع حفنة من السكاكر المغلفة في كفّ الطفل سعيد. نظر الطفل إلى أبيه نظرات استفسار فضحك أبوه وقال: ”خذها يا ولدي. خذ تلك السكاكر. إنها أموال النصارى. وهي حلال“ ضحك سركيس بدوره وأجاب: ”حلال إن كانت بطريق النهب. لكن الآن كل شيء له ثمن“. قهقه الشيخ محمود وقال: ”يبدو يا سركيس أنك تفهم الشريعة المحمدية أيضاً“.

تبرّم المريدون خارجاً وانزعجوا من وقاحة سركيس لكنهم حين سمعوا الشيخ يضحك هدأت نفوسهم قليلاً. أمّا أصحاب الحوانيت الآخرون فقد صاروا يمدّون أعناقهم ليفهموا ما الذي يجري هناك لكنهم سرعان ما عادوا لشرب الشاي خوفاً من جماعة المريدين.

كان سركيس تاجراً جاب الآفاق فوصل حتى الموصل وبغداد وتبريز وإسطنبول وحلب والشام، وحين جاوز الستين من العمر سلّم أمور التجارة إلى ولده وانيس بينما تسلّم هو أمور الحانوت. بعد عدة سنوات انتقل ببيته وحانوته إلى وان واستقرّ قريباً من بوابة تبريز عند سور المدينة.

هناك صار الفتى سعيد الذي أصبح يدرس الفقه في مدينة موش يزوره بين الحين والآخر. حين رآه سركيس في أول

زيارة نهض وعانقه وهو يقول:
ـ ما شاء الله لقد أصبحت رجلاً.
وصار يحدثه عن قصة انتقاله:
أرضروم هي أيضاً مثل قارص. لا يعرف المرء لأيّ دولة سيدفع الضرائب! وحين تتقاتل الجيوش نفقد كلّ شيء. ينهبون أموالنا ويشرّدون عائلاتنا. قلت ربّما كانت مدينة وان أكثر أمناً. فلننتقل إليها. إنني أشمّ رائحة الحرب يا سعيد. إنني أشم رائحة النكبات. نحن مضطرّون لنحتمي بظلال أحد الفريقين. أنا الآن في وان ولا أدري أين سترميني رياح الحرب في العام المقبل.

كان سركيس قد تجاوز السبعين من العمر. وكان ابنه التاجر وانيس قد تزوّج ورُزق بولد سمّاه أنترانيك.

اختلطت أعوام الشيخ سعيد بعضها ببعض وهو أمام تلك المشنقة. تدافعت الوقائع والذكريات كأنها أسماك في شبكة تحاول الواحدة أن تخرج قبل الأخرى.

رغب في أن يستحضر الذكريات الأهم ويرتبها في خياله. لكن خياله كان يميل كالسكارى يقدّم رجلاً ويؤخّر رجلاً، ثم ينطلق سريعاً كأنه جواد ويترك السنوات تضيع في غبار حوافره.

عاد بذاكرته إلى ذلك العام الذي ذهب فيه بصحبة والده إلى أرضروم. عاد إلى حانوت سركيس الذي رحل بعد خمسة

عشر عاماً إلى وان. عاد إلى ذلك الحديث الذي دار بين والده الشيخ وبين سركيس التاجر الأرمني.

- يا شيخ أفندي ألاحظ أن سعيد مزعوج. خيراً إن شاء الله؟

مسح والده الشيخ لحيته بيده ثم صحّح وضع عمامته من الكتّان الدمياطي وقال:

- لا لا هو ليس مزعوجاً. لكنني وعدته بركوب الزلّاجة.

- الزلّاجة؟ سامحك الله. الزلّاجة ولا شيء آخر. لا شك في أن الأطفال يلعبون الآن في الساحة شمال المقبرة. يتزلّجون على الثلج. دعني آخذه إلى هناك.

- لا. أنت لا.

ردّ الشيخ سعيد ثم أمر أحد المريدين المرابطين خارج الحانوت:

- رافق سعيداً إلى ميدان المقبرة وابق معه حتى موعد صلاة الظهر.

تقصّف حزن الطفل مثل عود مهترئ.

***

عكَّر صوتُ تقصّفٍ ما سكونَ ذلك الليل. تبعته جلبة ارتطام بالأرض. عرف الشيخ سعيد الظامئ أن المشنقة تكسّرت تحت ثقل أحد رفاقه. وربما انقطع الحبل! قال لنفسه مستدركاً. أراد أن يعرف أيٌّ من رفاقه ذلك الذي هوى إلى الأرض. أصاخ السمع إلى الجهة التي سمع منها صوت الارتطام فعرف أنها

المشنقة الأخيرة في سلسلة المشانق تلك. سمع حديث ضابط مع بعض الجنود وهم يتحدثون بالتركية:

- مات. مات.

- لا.. لم يمت بعد. انظر، ها هو يحرّك أصابع قدميه.

- أكمل عليه أنت.

- كيف يا سيدي؟

- ضيّق خناق الحبل على رقبته. اقتله. ثم علقه من جديد.

وعاد ليل دياربكر إلى سواده الأخرس. وأعاده خياله إلى طفولته وثلوج أرضروم البيضاء.

كان ثمّة أطفال كثيرون في الميدان يتزلجون على الثلج بسعادة جمّة. بضعة رجال كانوا يجرّون وراءهم زلاجات الأطفال بينما تكفّلت الكلاب بجرّ أطفال آخرين. استأجر المريد الذي كان يرافقه زلّاجة وأركبه عليها ثم ربط الحبل على خصره وصرخ: يا سيدي شاه نقشبند[5]. ثم جرَّه وراءه.

5 شاه نقشبند هو لقب مؤسِّس الطريقة النقشبندية الصوفية محمد بهاء الدين نقشبند، عاش في بخارى خلال القرن الرابع عشر الميلادي. وقد أدّت الحركات الصوفية دوراً كبيراً في الثورات الكردية.

- ما أشبه هذه المشانق بتلك الزلاجات! سنتزلج عليها في طريقنا إلى الموت.

قال الشيخ سعيد وصار يعدّ المشانق.

حوالى خمسين مشنقة! تماماً بعدد تلك الزلاجات في ذلك الزمن الغابر.

هناك كانوا حوالى خمسين طفلاً، هو أحدهم، يتزلجون بسعادة ويمسحون بين الفينة والأخرى ندف الثلج عن وجوههم الغضّة كصباح جبلي.

وهنا حوالى خمسين مشنقة، حوالى خمسين رجلاً، هو أحدهم، يتزلجون صوب الموت في ذلك الليل الحارّ الأخرس من ليالي دياربكر.

جال ببصره في سماء مزيّنة بنجوم حزينة. بحث في درب التبانة عن البيضاء. لم يجدها. أوشك أن يطرح سؤاله للربّ لكنه أحجم عن ذلك.

- الماء. فقط لو شربت الآن قليلاً من الماء لكنت...

اشتهى الماء لكنّه تحمّل العطش. وحين تذكّر مشهد ندف الثلج التي كانت تثيرها الزلاجة فتضرب وجهه، ازداد عطشاً على عطش.

- إذا عطشت فعاقب الماء في خيالك بالنفي.

تذكّر قول أحد مرشدي الطريقة النقشبندية.

كان قد بقي بينه وبين المشنقة خطوتان فقط. شعر بأن تحت لسانه صحراء تتلوّى في القيظ.

لم يكن نهر دجلة يعرف أنه ظامئ. كان يجري بهدوء وكأن لا أحد يشتهي الماء بجانبه. ينابيع الفرات لم تكن على علم بعطشه. أنهار الزاب والخابور، سابلاخ وجوانرود أيضاً. فمن أين إذاً ستعلم بذلك أنهار التايمز والفولغا والسين؟

- إن الخوف يسبب الظمأ.

هكذا كان يقول المقاتلون القادمون من جبهات القتال. لكن الشيخ لم يكن خائفاً لا من الموت ولا من ذينك الجنديين الممسكين بذراعيه ولا حتى من ذلك الصفّ من المشانق. لقد ناله الظمأ من ملوحة ثورته، كانت ثورة مفرطة الملوحة. وكان نهر دجلة يجري هادئاً دون أن يدري أنّ ثمّة رقاباً تلفّها الحبال قريباً من ضفته.

- الآن تجري المراكب مع الموج.

تذكر الشيخ السفر بالمراكب. المراكب التي كان يسافر بها التجار والفارون من العسكرية والقرويون والقتلة والهاربون من العدالة والفقهاء والملالي، الأرمن والآشوريون والكرد والترك والفرس. كانوا يسافرون مع آمالهم وأحلامهم صوب مدن تسند رؤوسها إلى ضفاف دجلة، إلى الموصل وبغداد. كانت تلك المراكب مصنوعة من الخشب. ألواح مرصوفة من خشب الحور النامي على ضفّتي دجلة. كل لوح بجانب لوح آخر، تماماً كما تتراصف هذه المشانق الآن قريباً من باب الجبل في دياربكر.

كان أصحاب المراكب يشترون جذوع الحور ذاك، يقشرونها، يقطعونها ويعرضونها للشمس أياماً حتى تصبح خفيفة. هكذا أوحى لهم علمهم الذي تعلموه من خيالهم الخشبي النديّ: كلما كان الخشب خفيفاً جرى في الماء بسلاسة أكبر.

بعد التقشير والقطع والتجفيف كانوا يربطون تلك الأخشاب ويعقدونها بالحبال ثمّ يشدّونها إلى القِرَب والزِقاق المنفوخة

وهكذا يتكوّن في النتيجة مركب مسطح يجري في النهر مع التيّار.
وحين كانت تلك المراكب تصل إلى بغداد، كان المراكبية يعمدون إلى فك الزِقاق وتنفيسها ثم طيّها وأخذها معهم مرّة أخرى إلى دياربكر، أمّا الخشب فيبيعونه للتجار.
كانت تلك الأخشاب تتحول في بغداد إلى مشانق تُنصب في الميادين. كان الناس يعلقون هناك فيغوصون في وحول الموت العثماني.
ركب الشيخ سعيد في طفولته المركب عدة مرات. كانت الأنسام التي تهبّ على سطح النهر تنسي المرء كلّ عطش. كان الماء الحلو يحيط بالمركب من كل طرف. ما كان هناك خوف من العطش أبداً.
ذات يوم دخل صاحب مركب في جدال طويل مع تاجر يرتدي زيّاً أوروبياً. قال ذلك التاجر لصاحب المركب: إن مراكبكم خطرة جداً. إنها مطوّقة بالموت يا رجل. ضحك المراكبي حتى كاد يسقط على قفاه ويقع في النهر ثم قال: هذا المركب ليس خطراً ما دامت أخشابه مربوطة بعضها ببعض. لكنها تصبح خطرة حين تصبح فرادى. لم يفهم التاجر فعقب راكب عجوز: حين تصبح فرادى تتحوّل إلى مشانق. هل رأيت المشانق؟

***

- دقائق قليلة وستقضي هذه المشنقة على عطشي.
قال الشيخ حزيناً. لم يكن يريد أن يموت وفي قلبه حسرة أن يشرب قليلاً من الماء.
قبل أن يخرجوه إلى ساحة الإعدام كان يتحدّث إلى رفاقه عن السنوات المنصرمة.
- والسنوات المقبلة؟
سأله رفاق السجن. لم يجبهم. لكنه قال: إنني ظامئ. حلقي جافّ. نهض أحدهم ليجلب له كأس ماء. لكنّ الجنديين أخذاه.
رجا رفاقه ذينك الجنديين أن يمنحاه فرصة لشرب الماء:
- الشيخ ظامئ. لا تأخذاه إلى المشنقة الآن.
قيّد الضابط الذي رافق الجنديّين يدي الشيخ وراء ظهره وقال بلهجة جافة:
- لا تقلق. سيشرب الشيخ الماء في الجنّة. سيشرب ماء الكوثر في حضن الحوريات.

***

بدأت حورية الليل المتوّجة بالنجوم تشيخ. صارت تغزل أقدار الرقاب اليتيمة بين أصابعها السوداء ببطء. سُمِعتْ أصداء أنفاس فجر منعش بارد. كان الشيخ سعيد واقفاً أمام مشنقته بعطشه الصامت يحدّق في رقاب أصدقائه التي مالت على الأكتاف.
- هذا هو الشيخ غالب، ذاك هو الشيخ عبد الله، وذاك هو...

حجبت دمعتان الشيخَ عن باقي المشنوقين.

انحدرت الدمعتان فشعر ببرودتهما على وجنتيه. أراد أن يمسحهما. تذكّر أنّه مقيّد. حين أدرك أنّ الجنديّين لن يميّزا في الظلام عينيه المبللتين بالدمع، ارتاحت نفسه قليلاً وصار يُغمض عينيه مرّات متتالية حتى يزيل آثار الدمع عنهما.

خفقت ذكرى إحدى الليالي القديمة عند نافذة خياله مثل غراب. كاد الشيخ يرى الريش المتطاير من خفق جناحي تلك الليلة حواليه. "كانت ليلة حالكة كهذه" أسرَّ الشيخ لنفسه.

في تلك الليلة أركبه والده خلف أحد المريدين وقال:

- إن طريق العلم كما طريق التصوّف ضيّقة وطويلة. إيّاك أن تظنّ أنك ستبلغ النهاية.

كان حزيناً لا يريد أن يغادر بلدة بالو. واساه والده: "يا بنيّ، إن بلدة موش قريبة. قريبة بحيث لو غربت الشمس وأنت هناك فسترى ظلالنا ونحن هنا قرب مسجد موش الكبير. وإن اشتقت إلينا كثيراً فامش بموازاة نهر مراد وتعال لتزورنا".

ازدادت رائحة جذوع الحور المقشورة وضوحاً. كانت رائحة نمّامة واشية. لم يعد لدى الشيخ أدنى شك في أن تلك المشانق التي تتدلى منها أجساد رفاقه، مصنوعة من الحور النامي على ضفاف دجلة.

- الخشب ذاكرة الماء.

قال له نجّار أرمني ذات مرّة في موش.

في السنة التي ذهب فيها لدراسة الفقه أراد إمام مسجد موش صنع منبر خشبي جديد.

جلبوا نجّاراً أرمنياً شهيراً ليصنع المنبر الجديد. كان الشيخ سعيد يذهب بعد صلاة الجمعة إليه، يتأمّل فنّه ويصغي إلى كلماته العميقة. كان النجّار الأرمني يفهم خصائص الأخشاب كلها، يتحدث عن الأشجار كأنه يتحدث عن البشر، حتى قال ذات مرّة: العناد صفة شجر المُرّان والسنديان، والجهل صفة التين، التكبّر صفة الحور والصفصاف، الحكمة صفة الزيتون. كلّ شجرة تشبه إنساناً.

- والجوز؟

- شجرة مجنونة. ليست مجنونة فقط بل تصيب البشر أيضاً بالجنون.

ثمّ مد يده إلى قطعة خشب وقال:

- انظر. هذا شجر المُرّان. إن كان رطباً نديّاً تستطيع صنع الأقواس منه، تستطيع كذلك صنع السلال والغرابيل وغيرها منه. حتى إنك تستطيع نحت سلطان خشبي منه أيضاً. لكنه حين ييبس لا يقدر عليه سوى الله ومنشار معدني الأسنان.

- ولماذا ييبس ذلك الشجر ويعاند؟

- قلتها بنفسك أيها الفقيه العزيز. الشجر يعاند. يتذكر الماء فيشرف على الجنون. ألا ترى سرعة احتراق الشجر اليابس؟ نار عشق الماء تحرقه. لكن الخشب ما دام ندياً ويحوي في أحشائه الماء كدرع، فإنه يقاوم.

- وشجر السدر؟
- لمَ تسأل عن السدر؟
- قل لي أولاً ما خصائصها؟
- إنه شجر لا طاقة له بالصبر. قل لي الآن لمَ سألت عنه؟
- قرأت في الحديث أن منبر النبي كان من خشب السدر. فلماذا تصنع منبر هذا المسجد من خشب المُرّان؟
صمت النجار الأرمني قليلاً ثم أجاب:
- ذاك كان نبيّاً ولم يكن ليكذب حاشاه. لم يكن يدعو على المنابر للسلاطين. أمّا خطباء اليوم فإنهم مستعدّون في سبيل مجيدي واحد أن يذكروا مناقب إبليس نفسه. لو صنعت المنبر من خشب السدر لانهار في أول جمعة بتأثير أكاذيب الخطباء.
مدّ الشيخ سعيد يده إلى طاقيته البيضاء فحرّكها قليلاً ذات اليمين وذات الشمال ثم مشى بصمت وكأن جواب النجّار لم يعجبه.
أدرك النجار ذلك، فهم أنّ سعيداً غضب فنهض وخرج يناديه:
- لا تغضب أيّها الفقيه، فإن قساوستنا ليسوا بأفضل من هؤلاء الخطباء. إنهم من نفس الطينة.

***

أنهى النجار الأرمني صنع منبر مسجد موش من خشب المرّان في بضعة أسابيع. صار الملا ذو الجبّة الصفراء

يرتقيها ويلقي خطبه التي يدعو في خاتمتها للسلطان العثماني عبد العزيز خان، خاقان البرّ والبحر وبادشاه الأناضول والروملي، الذي لم يكن على علم بذلك المنبر ولا بظمأ الأشجار. دأب السلطان في ذلك الوقت على أن يتكئ بمرفقه على وسادة محشوّة بريش الطواويس ويفرك نهد ظبية زرقاء العينين على ساحل البحر في بلدة نيس الفرنسية. كان الشغل الوحيد لسلطان الإمبراطورية العطشى أن يروي هناك ظمأه المقدّس الناشب بين فخذيه.

***

تنفس الشيخ سعيد ذلك الهواء الممزوج برائحة جذوع الحور المقشورة حديثاً. ملأ رئتيه بما يستطيع من هواء. كان يصارع إمبراطورية الظمأ بصمت في تلك الليلة المدلهمّة.

حين ملأ الشيخ رئتيه تراجع الجندي الممسك به من جهة اليمين قليلاً إلى الوراء. أسرع زميله يسنده من الوراء فيما بقي يمسك باليد الأخرى بذراع الشيخ وكأنهما يخافان أن يهرب وقال ضاحكاً:

- تكاد تنام واقفاً يا رجل. ألا تصبر بضع دقائق أخرى؟

عرف الشيخ أيضاً أن بضع دقائق فقط بقيت لينتهي الأمر. بضع دقائق فقط بقيت ليلتفّ على عنقه ذلك الحبل الذي يتدلى مثل حلم جهيض.

- ليت ساعتي كانت معي الآن ولم تكن يدي في القيد.

تذكر مرة أخرى ساعته الروسية ماركة سركيسوف ذات الغطاء والسلسلة الفضية. أراد أن يعرف ساعة إعدامه وكأنه سيبقى بعد الإعدام ليروي للآخرين قائلاً: لقد أُعدمت في الساعة كذا.

في تلك اللحظة، وأمام المشنقة المنتصبة أمامه ثارت ذكريات طفولته كعشّ دبابير أثارها طفل شقيّ بعود مشتعل الرأس ناراً. صار يتذكر أموراً طواها الزمان فبدت كأنها تجري أمامه. ذكَّره العطشُ بالأنهار والينابيع والثلج والمطر والبَرَد والسواقي والسيول والماء بكل أطيافه وتفاصيله.

أمّا المشانق فقد ذكرته بالأشجار التي تسلقها، بأنواع الخشب التي رآها ولمسها بيديه، بالمنابر التي اعتلاها، بالطاولات والكنبات في بيوت البيكوات والباشوات، ذكرته تلك المشانق بصناديق العرس التي رآها تُحمل على صهوات الجياد في الأعراس، بالعيدان التي كان يلعب بها بمياه الينابيع، بعصيّ الرعيان، بالأعواد التي كانوا يشعلونها في أعياد الأرمن، ذكرته مشنقته بمهده المصنوع من خشب الجوز والمزيّن دائماً بالتمائم والتعاويذ، بأشجار المشمش التي كان يعلق بها الأراجيح يتأرجح فيها ويستظهر دروسه، ذكّرته المشانق بأشجار الصفصاف والبطم والدلب والحور والمرّان واللوز وبأشجار السرو التي كان يتفيّأ ظلالها آلاف المرات حتى يدركه النعاس.

تزاحمت تلك الذكريات في خياله مثل قطيع غنم أحسّ بغارة الذئاب فتذكّر حياته من سنته الخامسة حتى تلك اللحظة حين أخرجوه من بين عضادتي باب الزنزانة الخشبية إلى ساحة المشانق.

- الماء حَمَلٌ فإن لم تكن ذئباً عطشتَ.

قالها له درويش من جزيرة بوطان اسمه خضر البوطي عند باب مسجد علاء الدين بيك في موش. كان يوم ثلاثاء من شهر آب وهو يوم عطلة لطلبة الفقه. كان الطالب سعيد يستظهر دروسه في ذلك الحرّ الذي ألهب السماء والأرض حتى إن الدجاجات كادت تضع بيوضاً مسلوقة وكادت حبّات اللوز تسقط من الأغصان مطبوخة.

صيف موش ليس حاراً في العادة لكنه كان في تلك السنة استثناءً فبدا كالسعير. كان ذلك الدرويش ذو السترة الخفيفة والسروال البوطاني من الجوخ المخطط باللونين البنّي والأبيض، يلف على خصره حزاماً أحمر ويعتمر قبّعة مخروطية زرقاء لفَّ عليها كوفيّة صفراء. رآه الشيخ سعيد واقفاً بجانب كوز ماء في كوة في الجدار يضع طاسة معدنية معلقة بخيط في الكوز، يملأها بالماء ويشرب.

بدت قطرات الماء المتناثرة على لحيته مثل خرزات شفافة صغيرة. كان الظمأ قد نال من الدرويش فلم يعد يرتوي. رنَّت الطاسة إذ ارتطمت بقعر الكوز. توجّه الدرويش الظامئ إلى الشيخ سعيد وأنشد بيت شعر عربي:

شربت الحب كأساً بعد كأسٍ
فما نفد الشرابُ ولا رويتُ

ثم ضحك حتى استيقظ بضعة من طلبة الفقه كانوا نائمين على الحُصُر بجانب سارية المسجد. تأفف أولئك الطلبة ثم عادوا من جديد إلى النوم.

- ما هذا الكتاب الذي تقرأه يا فَقَه؟[6]

[6] فقه بفتحتين فسكون كلمة تُطلق على طالب الفِقْه المبتدئ. واضحٌ أنها تحوير لكلمة الفقيه وتغيير لدلالتها.

- كتاب الفوائد لمولانا الجامي.

- هذا علم الظاهر. لا قيمة له. قل لي هل تستطيع قراءة الماء أيضاً؟

اندهش الشيخ سعيد ونظر بصمت إلى فم الدرويش فرأى قطرات الماء على لحيته نصف المدورة تلمع مثل ندى الصباح على أعشاب نبتت قرب بئر المسجد. أزاح الدرويش بكفه تلك القطرات العالقة بشعر لحيته ثم نفضها ومسح يده بكم ثوبه وقال: "لكي تتقن قراءة الماء عليك أن تعطش يا ولدي. أتعلم أنني جئت من الجزيرة إلى هنا مشياً؟ تمزّق نعلي مرتين فمشيت حافياً لمدة يومين. كان مسافرو القافلة التي سرت في ركابها يتوقفون عند الينابيع والسواقي لينهلوا منها بينما امتنعت عن ذلك. بقيت ظامئاً ما وسعني ذلك. هذا من آداب سلوك الدروب الربّانية. من لا يعطش لا يقدر على تهجئة

حروف الماء. إن لم تعطش لن تستطيع تمييز حرف المدّة عن حرف الفاء الفارسية في كلمة آڤ[7]. إن حرف المدّ الطويل هنا يشبه العطش وحرف الفاء الفارسية بالنقاط الثلاث فوقه يشبه قطرات ماء ينسكب من كفّ الإله. إن العطش امتحان للنفس. إنه يمحو المسافات بين الربّ وعبده. اعطش حتى ترى الحروف المائية المنسكبة من بين أنامل الإله النورانية".

7 آڤ تعني الماء بالكردية.

ألقى الدرويش بعد ذلك بكل ثقله على الأرض. لاحت بضع شعرات سوداء في لحيته نسيها الزمان هناك. كانت تلك الشعرات ذكرى شباب منسيّ في جزيرة بوطان. أنزل الدرويش كشكوله عن كتفه، فتحه بهدوء وأخرج مشطاً من العظم من بين حبّات الجوز ومدّها لطالب الفقه سعيد قائلاً: "خذ هذا المشط. إنه للأرواح". نظر سعيدٌ الفتى إلى ذلك المشط الأصفر ذي الأسنان الدقيقة فعرف أنه مشط ثمين لكنه أنف أن يأخذه من يد ذلك الدرويش. مدّ بدوره يده إلى جيب ثوبه وأخرج مشطاً بنياً رفعه في وجه الدرويش قائلاً:

- انظر. عندي مشط، مشطي من خشب الجوز.

رمق الدرويش خضر البوطي الفتى سعيد بنظرة أحدَّ من خناجر الجبليين الكرد ثمّ أغمض عينيه مرّات عدّة وصمت. بقي صامتاً مغمض العينين كمن يستشرف مستقبلاً بعيداً ثم فتح عينيه ببطء وقال:

- إن لم ترمِها إلى إحدى القباب فسيأخذون المشط منك.
ونهض ثم غاب عن بصر الشيخ مثل ريح.

***

بعد ذلك اليوم صار الدرويش البوطي يأتي كل يوم جمعة إلى مسجد موش. يقف في صحن المسجد أسفل القبة، يخرج حبّة جوز من كشكوله ويرميها في اتّجاه القبّة. كانت حبّة الجوز تتدحرج وتسقط على الأرض. وسرعان ما كان الدرويش يرمي حبّة جوز أخرى لتسقط هي أيضاً. بعد ذلك كان أطفال الأحياء القريبة من المسجد يأتون ويتفرجون عليه ثم يجمعون حبّات الجوز المتساقطة على الأرض. كان الكبار أيضاً يأتون للتفرّج عليه. يضحكون عليه ويسخرون منه فيما يقول آخرون إن لما يفعله هذا الدرويش حكمة خفيّة ومغزى عميقاً.

ذات يوم وقف طالب الفقه سعيد خلف الدرويش دون أن يشعر به. رآه يخرج حبّة جوز من كشكوله ويرميها صوب القبّة. تدحرجت حبّة الجوز كما في كلّ مرّة نحو الأسفل. ثار الدرويش خضر وحدّق في حبّة الجوز التي حملها في كفه وقال:

- فلتستقرّي ولو مرّة واحدة على القبّة. ما الذي سيحصل؟ مرّة واحدة لوجه الله.

قال له سعيد من الخلف:

ـ منذ سنة وأنت ترمي بالجوز على هذه القبة دون أن تستقرّ فوقها أيّ جوزة. قل لي إذاً ما الحكمة في فعلك هذا؟

قال الدرويش دون أن يلتفت:

ـ ليس منذ سنة. بل قل منذ عشرين سنة يا ولدي. هذا جوز الأمير بدرخان. جوز أمير بوطان وآماله المهشّمة. يا حسرتاه. الذنب ليس ذنب الجوز يا ولدي. إنه ذنب القباب.

جلس خضر البوطي على الأرض واستند إلى عمود في فناء المسجد الخارجي حيث كان بعض طلبة الفقه ينامون. خيّم الحزن على ملامح وجهه حين بدأ يروي حكاية الجوز والأمير بدرخان:

كان ذلك قبل عشرين عاماً حين أصبحت الجزيرة جوزة تهشّمت تحت سنابك خيل عثمان باشا. ألا تبّاً للأروام. حاصروا أميرنا في تمّوز قائظ في قلعة أروهْ وقطعوا عنه الماء. حاربوه بالعطش يا فَقَه. هل عرفت الآن لمَ أشرب كلّ هذا الماء؟ أريد بذلك أن أروي ظمأ أميرنا. حين يظمأ الأمير في الشام أشعر به هنا. لقد أعطشوه ثم أسروه وأرسلوه مقيّد اليدين إلى إسطنبول. آآآه آه. أميرنا الآن في الشام الشريف. حين يصلي يتّجه إلى جزيرة بوطان. اتّخذها من هناك قبلة له. لم تستقرّ جوزته على القبّة. كان رجلاً لا كالرجال. يمحو نقش المجيديات بين إصبعيه. أتعرف المجيديات؟

أجاب سعيد:

ـ نعم. هي نوع من العملة.

- صحيح. هي عملة سكَّها اللامرحوم السلطان عبد المجيد. انظر. هذا مجيدي.
أخرج الدرويش مجيدياً من جيبه. لم يكن ثمّة أثر للنقش. عبارة "ضرب قسطنطينية" كانت مقروءة بصعوبة كبيرة. فرك خضر البوطي تلك القطعة قليلاً وقال:
- سُكّت هذه القطعة في دار السكة في إسطنبول. كان في استطاعة أميرنا أن يمحو نقوش عملة الأروام لكنه لم يتمكن من محو آثار أقدام جنود عثمان باشا. بل بالعكس فقد محا عثمان باشا أثر الأمير من الجزيرة.
ثمّ وضع كفّه على أذنه وبدأ يدندن بكلمات أغنية:

قرية خان تقع عند التلال

وعساكر عثمان باشا تزمجر أسفل المنازل
هطلت زخات من المطر
فبللت أردان عباءة بدرخان بيك شقيق تيلي بيك
هيه ألا تبّاً لكم
لماذا لا تنهضون في الليل لتقاتلوا بحزم!
انهض انهض أيّها المحكوم
لقد صدر فرمان بحق بدرخان بيك شقيق تيلي بيك
من إسطنبول

**

قرية خان تقع على الطريق

طلب عثمان باشا المدافع الكبيرة من حلب
ها هي أصوات المدافع والبنادق ترتفع
يا للحسرة، ها هم جنود الأروام في جزيرة بوطان
لقد هدموا سنجق العشائر

**

قرية خان تقع هناك

وعساكر عثمان باشا يزمجرون
يا للحسرة
ألا تبّاً لكم
لقد دخل جنود الأروام جزيرة بوطان
وخرّبوا أعشاش العرائس

ها هاهيييييي

مع الياء الممدودة تلك، الياء الشبيهة بكلمة آمين في نهاية

الفاتحة، استيقظ طلبة الفقه النائمون على الحصر في الفناء وصاروا يحوقلون. توجّه أحدهم إلى خضر البوطي وقال غاضباً:

ـ هذا مسجد أيّها الدرويش وليس مضافة.

ـ ألا تبّاً لك أيضاً. إنك تعادي من يوقظك.

ردّ الدرويش خضر البوطي بحدّة وهبّ واقفاً ثم مضى.

لمح الفتى سعيد المجيديَّ الذي تركه الدرويش وراءه، انحنى والتقطه من الأرض ثم تبع الدرويش وناداه: "يا عمّ خضر. يا عمّ خضر. لقد تركت مجيديك هنا". حانت من خضر نصف التفاتة فبدا قليل من وجهه. استطاع سعيد أن يرى بوضوح عينه المبللة. ردّ الدرويش بصوت مخنوق:

ـ دعه معك يا بنيّ. احتفظ به لكن إيّاك أن تفعل مثل أميرنا. عليك أن تمحو آثار الأروام عن بلادنا لا عن المجيديات.

صار الناس ينادونه في موش بالصوفي جوز. أهمل الناس اسم الدرويش خضر، بينما دأب هو على تسوّل الجوز من البيوت، يقف أمام كلّ كوز ماء على ناصية كلّ شارع وفي كلّ مسجد ويشرب الماء بالطاسات قائلاً:

ـ اعطشوا. اعطشوا لتتعلموا أبجديّة الماء.

***

على مدى ستّين عاماً، لم يتذكّر الشيخ ذلك الدرويش الصوفي جوز. غاب رنين طاساته حين كان يغرف الماء صيفاً من

الجرار الفخّارية عن ذاكرة الشيخ كل تلك السنوات. وفجأة قفزت ذكرى ذلك الدرويش إلى سطح الخيال في تلك الليلة أمام المشنقة. تذكّر الشيخُ الأمور بتفاصيلها، تذكّر موش وصيفها من تلك السنة. حتى النقوش الدقيقة على المحراب في المسجد تذكّرَها، البسط المفروشة في بهو المسجد ونقوش الجدران والقماش الأخضر الذي غطى درجات المنبر والوجوه المصفرّة لطلبة الفقه الذين استلقوا وناموا عند أعمدة المسجد هرباً من القيظ.

تذكّر الشيخ شجرة التين في وسط المسجد، بأغصانها المثقلة بتين تشقّق معلناً نضوج حباته. كان ذلك تيناً من نوع بيناتي جلبه قبل عشر سنوات طالب فقه من قرية بينات في جزيرة بوطان. مرّات كثيرة كان الصوفي جوز يرافق سعيداً إلى ظلال تلك الشجرة ليفشي له بأسرار الماء وجنون الجوز:

- لا تلق بالاً لما يقوله الناس. كلما سنحت لك الفرصة وأينما وجدت قبّة فاقذفها بحبّة جوز.

سأل الشيخ في سرّه حين تذكّر تلك الأمور: "ترى أهو اقتراب الموت ما يجعل الذاكرة تفيض؟ أهو الخوف أم هذا الظمأ اللعين؟".

اندفعت الوقائع الماضية في خياله ثم ارتمت عند أبواب عامه السبعين المشرعة دون أن تطلب الإذن من وعيه.

أصبحت الذاكرة في تلك اللحظة غديراً تتخبّط فيه أسماك الزمن العمياء.

- الموت صنّارة لامرئية تعلق بفم المرء يوم يولد. ثم تنغرز تلك الصنارة أكثر فأكثر كلما أراد اقتلاعها.

هكذا قال والده الشيخ في مجلس عزاء أحد آغوات قرية كلدار. كان هو أيضاً هناك دون أن يدري عمّا يتحدث والده. لم يفهم ذلك الوقت سوى هاتين المفردتين اللتين صدئتا من تكرارهما لآلاف الأعوام:

- الموت حقٌّ.

جال الشيخ سعيد بلسانه سقف حلقه الجاف، ذهب به ذات اليمين وذات الشمال. ابتلع ريقه بصعوبة ثم قال لنفسه:

- لا تبحث عن تلك الصنّارة عبثاً يا سعيد. إنها ليست من المعدن على كلّ حال.

***

بعد أن خطا الشيخ سعيد خطوته الأولى نحو المشنقة هدأت الأنسام التي أثارها خفق قفطانه قبل قليل. توقف رقص الحبل المتدلي أيضاً. بدا كأنّ كلّ شيء يريد أن يصغي إلى ضوضاء خيال الشيخ السبعيني.

لاحت النجمة اللامعة من خلال حلقة الحبل مثل زرّ من الضوء بينما اختفت النجوم التي كانت ترتعش استعداداً للفجر.

فجأة سقط مبسم غليون كان يخفيه الشيخ تحت حزامه العريض. صوت ارتطامه بالأرض في تلك الظلمة وذلك البحر من الصمت كسر جرّة الذاكرة. وكما تتناثر مئات من

قطع النقود المعدنية فقد تزاحمت الذكريات وتدافعت تريد كلّ واحدة منها أن تسبق الأخرى.

فضّ صوت ارتطام ذلك المبسم بالأرض في تلك العتمة الشديدة بكارة الصمت. انحنى الجنديّان الممسكان بالشيخ وحاول أحدهما أن يلتقط المبسم فانحنى الشيخ معهما مضطرّاً. سرعان ما عاد الجنديّان إلى وضعهما دون أن يريا ذلك المبسم البنّي بينما طحن الألم قلب الشيخ كورقة تبغ.

- إنّه مبسم غليون عمر فارو.

كاد الشيخ يجهر بهذه الجملة للجنديين الممسكين به لكنه ضغط على أسنانه بكلّ ما أوتي من قوة كأنه بذلك يعضّ على الكلمات مخافة أن تخرج، وصمت.

قبل أن ينصب القدر فخاخه أمام قدمي الشيخ وأقدام رفاقه، وحين كانوا لا يزالون قريبين من دياربكر يتهيّأون للدخول إليها عبر أسوارها جاء الآغا عمر فارو إلى الشيخ وقال:

- مولاي لقد أقسمت ألا أدخّن حتى نأخذ هذه المدينة.

ابتسم الشيخ ورد عليه:

- يا عمر آغا إنه الدخان وإنه أشدّ بأساً من الترك الأروام. ومحاربته تتطلب عزيمة رجال أشدّاء.

أخرج الآغا عمر غليونه من جيبه ونزع المبسم المصنوع من خشب المُرّان وسلمه للشيخ قائلاً:

- أحلف برأسك المبارك يا مولاي أنني لن أشمّ التبغ حتى ندخل المدينة ونحرّرها. والله هي مسألة أيّام فقط وسنكون في

وسط دياربكر، سنلتقي عند مسجد بهرام باشا وسيرتفع فوقنا دخان التبغ الخُرسي[8]. تفضّل مولاي وليكن هذا المبسم عندك بينما سيبقى لديّ رأس الغليون وسأعطي علبة تبغي لسائسكم شركس الزازي.

8 نوع من التبغ المشهور في كردستان يُنسب إلى قرية خُرس في ولاية دياربكر.

كان الشيخ يعرف رجولة عمر فارو، لكنّ ترك الدخان ليس بالرجولة فقط، قال الشيخ في سرّه وهو يتسلّم المبسم.

خلال حياته التي قضاها في موش طالباً للفقه، تعاطى الشيخ سعيد التدخين لفترة من الوقت. كان له زميلان من أشدّ المغرمين بالتدخين. أحدهما خالص وهو من مدينة بدليس يعلو شفتيه شارب خفيف ويتمنطق بحزام من جلد الجواميس وكان ماهراً في صناعة الغلايين بمحفر حادّ يحمله معه دائماً. والآخر سليم من قرية عزيزان من بلدة جولك لا يجاريه أحد في الفارسيّة. كانت مشكلة أولئك التلاميذ في الحصول على التبغ فكانوا يضطرّون لمدّ أيديهم إلى علب تبغ المصلين حين ينشغلون بالصلاة يوم الجمعة.

- سرقة التبغ حلال!

قال خالص البدليسي ذات مرّة فردّ عليه زملاؤه:

- وهل قرأت هذا في صحيح البخاري؟

- لا. بل قرأت ذلك في صحيح مدخن التوتونجي.

ردّ خالص وسحب نفساً طويلاً ثم أطلق سحابة من الدخان من منخريه.

***

مضت سنوات ثلاث من عمر الشيخ سعيد في موش طالباً للفقه مثل ثلاث حفنات من التبغ أحرقها الزمن على عجل في غليونه. وقد لمعت تلك السنوات الثلاث في خياله أمام المشنقة مثل بروق ثلاثة فأضاءت غيوم الأحزان المتراكمة في صدره ثم غابت. آلمته ذكرى السنوات الثلاث مثل ثلاث خناجر طعنته من الخلف حتى نفذت إلى أضلاعه ثمّ خرجت.

بعد ثلاث سنوات قضاها في موش، ودّع الفتى سعيد طفولته، ودّع شيخه وزملاءه، ودّع شجرة التين في وسط المسجد أيضاً. أراد كذلك أن يودّع الدرويش خضر البوطي، بحث عنه فلم يلتق به. كان يعرف أن الدرويش بلا مأوى ينام أينما كان، لذلك أيقن أنه سيلتقي به على ضفّة نهر مراد فاتّجه إلى هناك.

كان ذلك قبل عيد الفطر بأيّام. تحوّلت السماء والأرض إلى منادف تنثر الثلج المتساقط من السماء كالقطن بأقواس الريح. لم تكن ثمّة آثار على الثلج سوى آثار الزرازير الجائعة. تحوّل نهر مراد إلى كتلة من الجليد بسماكة نصف ذراع تسير فوقه العربات كما تسير على طريق من المرمر.

لمح الفتى سعيد فوق جليد النهر ما يشبه شخصاً فاّتجه إليه. عرفه حين اقترب منه. عرفه من قبّعته المخروطية الزرقاء وحزامه الأحمر. ظن أنّ الدرويش خضر نائم على الجليد إذ كثيراً ما عثر على الدراويش في تلك الحالة لكنه حين اقترب أكثر وجد نصف جسمه عالقاً في الجليد غائصاً فيه. كان الدرويش خضر متمدّداً بنصفه الأعلى فوق الجليد وقد تناثرت حوله بضع حبّات من الجوز بدت كأنها شامات على جسد صبية بيضاء البشرة. لمح في كفّه أيضاً حبّة جوز كان قابضاً عليها بقوة بينما جحظت عيناه كأنهما ترنوان إلى الفراغ الهائل بين السماء والأرض.

وقف الفتى سعيد صامتاً خائفاً بجانب تلك الجثّة. قرأ الفاتحة ثم انحنى وسحب الجوزة من يد الدرويش الميت وابتعد عنه. انحدرت دمعتان تحوّلتا إلى جليد على وجهه الغضّ ثم صرخ:

- إيييييييه ها هي جوزاتك استقرّت أخيراً على قبّة من جليد.

***

توجّه الفتى سعيد بقلب كسير إلى قرية بالو. رافقته طوال الطريق جوزة الدرويش خضر البوطي. عبر إلى الضفة الأخرى من النهر ماشياً على الجليد. كان يرتدي عمامة بيضاء من الكتّان، على كتفه سجّادة صلاة، مسواكه في جيبه وفي صدره تضيء قناديل أنواع من العلوم، صرفٌ ونحوٌ وفقهٌ وحديثٌ وتفسيرٌ.

- وهذه بمئة كتاب.
قال في نفسه حين لمس الجوزة الراكنة إلى قعر حقيبته.
لم يكن الطريق إلى بالو طويلاً لكنّ الثلوج أطالته. كذلك الشوق والصيام أطالا طريق العودة. تعب قليلاً حين وصل إلى قرية داراهيني. توقف عند شجرة واستند إلى جذعها. كانت الزرازير والغربان والعصافير الجائعة تدوّن سطوراً سوداء كما في الكتب. تلك كانت سطوراً يحرّكها الخوف والجوع من جهة إلى أخرى فوق ذلك العراء الثلجي تدوّنها الطيور باحثة عن الطعام.
لم تترك خطوات الفتى سعيد سوى آثار خفيفة على الثلج. لو رآها قائف لأدرك أنّها آثار خطو طفل على أبواب الشباب. لأدرك القائف أن تلك الخطوات تعود إلى فتى مقيد اليدين كالحجل إلى وتد الطفولة.
كانت خطواته متقاربة تدلّ على استعجال وخوف وأنّ الحبّ لم يطرق قلب صاحبها بعد، وأن مغزل العشق ما دار فيه.

الخطوة الثانية

"القامة التي وقعت في غرامها مشنقتك

وخصلة شعر الحبيبة صنّارة قلبك."

الشاعر الكردي أحمد خاني

- كانت قامتها فارعة لطيفة كهذا الجبل الذي أمامي.

مع الخطوة الثانية تذكّر الشيخ سعيد الفتاة التي كانت تخدم في بيتهم.

كانت تلك قامة لا تُنسى. قامة تشبه نهر عسل أجراه الله في لحظة تجلّيات. كانت قامة من نار أشعلت حقول قلبه فطارت أسراب قطا الطفولة طائراً إثر طائر وتحوّل القلب إلى عشّ من لهيب.

يوم عاد من موش، كان جائعاً يرتجف من البرد مرهقاً فاندفع من باب البيت المشرع وصاح بلهفة غمرتها نبرة طفولية واضحة:

- ها قد عدت.

مع صيحته تلك، لمح فتاة في وسط الدار. تسمّر في مكانه وتحوّل إلى تمثال من الجليد. تناهبته الأسئلة التي تدحرجت في خياله مثل كرات ثلج.

تعجّبت الفتاة من جرأة ذلك الفتى المراهق وتجمّدت في مكانها. أرخت صدريّتها البنفسجية التي كانت تعقد طرفاً منها

تحت زنّارها الأصفر ووقفت بقامتها الفارعة صامتة لا تتحرّك.
مضى قليل من الوقت دون أن يتكلم أيّ منهما. بدا الأمر كما لو أن نهراً من جليد الصمت يفصل أحدهما عن الآخر حتى كاد سعيد يسمع خفق قلب الفتاة.
- من أنت؟
أذابت تلك الفتاة بسؤالها ذاك نهر الجليد. تلفّت سعيد حواليه، مشط البيت وجدرانه ونوافذه بنظراته، تخيّل لوهلة أنه دخل بيتاً بالغلط لكنه تأكد من أن البيت بيته. سأل دون أن يتحرّك من مكانه:
- ومن أنت؟
- أنا بريخان. خادمة في هذا المنزل.
كان صوتها دافئاً قضى على برودة الطريق المتغلغلة في عظام الفتى سعيد وروحه. كان صوتها ناعماً فيه قليل من البحّة، انساب من بين شفتيها دافئاً رخيماً كزهرة نرجس.
تقدّم سعيد حين سمع ذلك الصوت النرجسي خطوة إلى الأمام وقال:
- وأنا سعيد. أنا ابن الشيخ صاحب هذا المنزل. أتيت لتوّي من موش.
حين سمعت بريخان اسمه، تكشّف وجهها عن حقول من الورد والأزاهير فصاحت بفرح:
- يادي يادي... عاد ابنك سعيد من موش[9].

9 يادي: لفظة نداء للأم. غالباً ما يستعملها الكرد في نداء زوجات الأعيان والشيوخ.

سرت دماء الجرأة في عروق سعيد فخطا صوب بريخان حتى وصل إليها وحدّق في عينيها. كانت عيناها بحيرتين صافيتي الزرقة وجد نفسه فجأة على ضفافهما. عينان أطاحتا كلّ بيادر الطفولة المنسيّة في قلبه وتركتاها للريح تذروها. عينان زرقاوان سمع منهما صخب أمواج مهيبة في يوم عاصف.

داخ سعيد.

وحين عاد إليه وعيه رأى نفسه في حجرة أمّه، رأسه على وسادة محشوّة بالريش، ونار حنون تتقد في موقد هناك وتدفئ روحه. كانت مغازل النار قد بدأت تغزل في قلبه خيوط حبّ لن يهدأ حتّى لحظة وقوفه أمام مشنقته.

وقفت أمّه عند رأسه وقالت بخوف:

- فليحترق بيتي ولتحترق روحي. ما الذي جرى لك يا ولدي؟ والله لقد دخت من شدّة الجوع وتعب الطريق.

ثم مسحت جبينه ونزعت قبّعته. قبّلته ثم قالت للخادمة:

- أسرعي يا بريخان وأعدّي لسعيدي طعاماً. لا بدّ من أنه يتضوّر جوعاً.

سارت بريخان بقامتها الشبيهة بألف مستقيمة وخرجت لتحضر الطعام.

طارت عصافير خيال سعيد وراء تلك الألف الشبيهة بغصن رشيق.

***

اقتربت ألف الموت المعلقة بالمشنقة أكثر. لو كانت يدا الشيخ طليقتين ومدَّ إحداهما ليلتقط حلقة الحبل المزيَّت لاستطاع. ألف سيبدأ الموت معها تتأرجح الآن أمام وجهه.

كانت الألف أول حرف تعلمه الطفل سعيد ذو الخمسة أعوام حين قال له أبوه وهو يعلمه الألفباء العربيّة:

- الألف ابتداء اسم الله. الله واحد. والواحد يشبه حرف الألف، مستقيمٌ.

كان جاثياً على ركبتيه، مدّ إصبعه إلى الحرف الأول ثم أحنى جذعه بقدر ما يستطيع وقال:

- أليييييف.

ضحك أبوه. قال له: "يا بنيّ. ألفٌ وليست أليف". لم يتركه أبوه حتّى بدأ يلفظ الحرف بشكله الصحيح.

كان يحب حرف الألف ويعمد إلى مقارنة كثير من الأشياء المنتصبة المستقيمة به: المئذنة بالهلال الذي يعلوها ألف تعلوها الهمزة. البروق تبدو أحياناً مستقيمة كالألف. القلم. السهام التي يمطرها الأبطال في المعارك على صدور الأعداء. المطر الشديد يرسم حروف ألف تمتدّ بين السماء والأرض. الاشجار النامية على ضفاف الأنهار والسواقي. أسراب الكراكي.

- الألف حرف جميل.

كان يقول لأبيه دون أن يخطر على باله أنه سيقف في آخر يوم من حياته أمام حبل يتدلى كحرف ألف من مشنقة. عادت حياته إلى النقطة التي بدأت منها. من ألف البداية إلى ألف النهاية طارت سنوات عمره كأسراب طير في سماء الخيال.

قرأ الشيخ سعيد في الكتب القديمة أن المنجّمين حين ينظرون في الفأل ويرون إشارات على شكل حرف الألف فإنهم يعتبرونها علامة سعد وسرور، يعتبرونها علامة الحظ الوافر وتحقيق الأمنيات. ألفات التنجيم بشائر أيّام سعيدة وها هو التاريخ، ها هو التاريخ المنجّم يصفّ حروف ألف على شكل مشانق على هذه الساحة في هذا الليل البهيم. ها هو الشيخ سعيد يمضي إلى مشنقته بخطوات يختم بها دفتر حياته المسطور بآلاف الخطوات. كل خطوة ألفٌ يرسمها على الأرض.

أنعم الشيخُ النظرَ في ذلك الكرسيّ الصغير ذي القوائم الثلاث والمرتفع ذراعاً تحت حبل المشنقة. عرف أنه سيقف بعد قليل على ذلك الكرسيّ وأن الجنديين اللذين يمسكان به سيضعان رقبته في الأنشوطة وأن واحداً منهما أو كليهما معاً سيركلان الكرسيّ، لينقلب ثم يهوي تحت ثقل جسمه دون أن تصل قدماه إلى الأرض. تخيّل أنه سيتدلّى مثل قنديل المسجد وأن حلقة الحبل المغطس في الزيت ستضيق على رقبته بسرعة وسلاسة. لن يستطيع الشيخ أن يرفع رأسه إلى أعلى ليخرج رقبته من الحلقة الضيقة فيداه مقيّدتان من الوراء،

كذلك لن يستطيع أن يقف على الأرض التي يفصلها عن قدميه فراغ طوله ذراع، ذراع كامل هو المسافة بين الحياة والموت.

حين تمعّن الشيخ في الحبل المتدلي أمامه عرف أنه لن ينقطع:

- إنّه من القنّب.

كاد الشيخ يجهر بجملته لكنه شعر بأن حنجرته مسدودة.

- أعمدة المشنقة من خشب الحور، ما تزال نديّة. إنها من خشب الحور في بساتيننا، ولن تنكسر.

غصّت حنجرته المسدودة بهذه الجملة أيضاً.

انسدّت الطرق تماماً مثل حنجرته. كانت الطرق التي سلكها في ثورته شبيهة بالدروب الضيّقة المتعرّجة المحفوفة بالخطر على أطراف الأودية السحيقة. كل شيء كان يقوده إلى خاتمة ستصبح بداية. وراءه ثورة مهزومة وأمامه حبل مشنقة وفوقه سماء مشلولة خرساء صمّاء معصوبة العينين.

رفع رأسه قليلاً. نظر إلى تلك السماء التي خلت من النجوم فرآها تشبه جزمات أولئك الجنود الموجودين حول المشانق. كاد يجأر بالشكوى إلى الله. أحجم عن ذلك لما تذكر حكاية قديمة على لسان الحيوان في كتاب فارسي. تقول تلك الحكاية إن لبوة جائعة بحثت عن طعام لها ولأشبالها في إحدى الغابات فلم تجد شيئاً. كانت أشبالها تتضوّر جوعاً وتئنّ. وفجأة رأت تلك اللبوة غزالة ترد النهر لتشرب. كانت جميلة كحيلة وممتلئة باللحم. أحنت رأسها وصارت تنهل من الماء.

اتّسعت حدقتا اللبوة. كتمت أنفاسها وألصقت بطنها بالأرض. أيقنت أن الغزالة ستهرب لكنها كانت جائعة جوعاً لا يرحم. زحفت بهدوء حتى وصلت إلى مسافة قريبة وفجأة وثبت لتقف على قوائمها وانطلقت صوب الغزالة. جفلت الغزالة. سمَّرها الخوف فوقفت للحظة قصيرة تحدّق في اللبوة المهاجمة. لكنّ الروح غالية فهربت كالبرق. لاحقتها اللبوة الجائعة. اقتربت منها. اقترب الموت منها. رفعت الغزالة عينيها إلى السماء وصارت تجأر بالدعاء: ''يا ربّ. أنا مخلوقتك الضعيفة. خشوفي تنتظرني. فبرحمتك يا الله نجّني من براثن هذه اللبوة''.

سمعها الله في عليائه. سمع شكواها ورقَّ لحالها.

كانت اللبوة الجائعة ما تزال تلاحقها. طارت الحجارة الصغيرة والحصى من بين أظلافها وصارت تضرب عيني اللبوة التي كانت جائعة جدّاً. دعت اللبوةُ اللهَ بمذلّة: ''يا ربّ. أنا مخلوقتك الجائعة. أشبالي تنتظرني. اجعل هذه الغزالة من نصيبي برحمتك يا ربّ''.

نظر الله إليها من الأعالي. رقَّ لحالها.

كانت اللبوة الجائعة تلاحق الغزالة. وكانت الغزالة التي لم ترتوِ بعدُ تهرب من اللبوة. راقبهما الله من عليائه. ثم قال بعد وهلة قصيرة من التردّد: ''أنتما أدرى بما تفعلان. لقد تركت الأمر لكما''.

طأطأ الشيخ سعيد رأسه. أغمض عينيه لبرهة قصيرة. ارتعد قليلاً كمن أصابته حُمّى.

***

بعد أيّام من عودة سعيد الفتى من موش قالت أمّه:
- أما اشتقت إلى رفاقك وأقرانك؟ إنك يا سعيدي لا تخرج من البيت كأنك دجاجة راقدة. ألا تريد ركوب الزلّاجات؟ ها هم رفاقك من أطفال الحيّ في الخارج يلهون ويتزلجون على الثلج.

لم تكن أمه تعلم أنّ "سعيدها" ودّع الطفولة حين دخل البيت قبل أيّام والتقت عيناه بعيني بريخان.

لم يكن الفتى سعيد راغباً في الخروج إلى رفاقه. آثر أن يبقى في غرفته وحوله الكتب، يمضي الساعات وحيداً يتأمّل فناء الدار من النافذة. كانت بريخان تخرج بين فترة وأخرى مثل غزالة شاردة تزيح ركام الثلج أو تنتقل من غرفة إلى أخرى وفي يدها طبق نحاسي وأحياناً تذهب للبئر في وسط الدار تسحب الماء، تملأ الأباريق ثم تعود.

في بعض الأحيان كان سعيد يقف تحت شجرة التوت الكبيرة ويرمي العصافير بكرات الثلج. كانت العصافير تطير عن الأغصان العارية فينهمر رذاذ الثلج كأحلام بيضاء.

آثار أقدام بريخان على الثلج في فناء الدار كانت تواسيه. داوم على التحديق في تلك الآثار المحفورة في الثلج: كلّ أثر

منها يترك أثراً أعمق في قلبه.
صارت بريخان بدورها تكثر من مرّات الخروج إلى الفناء وكأنّ أعمال سنة كاملة تراكمت عليها. كانت حين تخرج ترتدي منديلاً أحمر على أطرافه شرّابات صغيرة وخرز أسود ناعم وتنظر بين الفينة والأخرى بخفر إلى النافذة التي يجلس فيها الفتى سعيد.
كانت نظراتها سريعة عجلى كنقر تلك العصافير التي يطيّرها سعيد عن أغصان الشجرة. وحين كانت تلتقي نظراتهما، كانا يبتسمان ويحنيان رأسيهما في حركة تبدو كأنها متّفق عليها.
لاحظت أم سعيد تبدّلات ابنها. ظنّت أن دراسته في موش والعلم الذي صار يحمله في صدره قد جعله هادئاً وقوراً. ظنّت أن علوم ابنها الجديدة قد حرّرته من قيد الطفولة ولم تكن تدري أنّ ناراً صامتة بدأت تتقد وأن نظرات الخادمة بريخان تزيدها ضراماً.
أحياناً كان سعيد يصادف بريخان عند البئر وسط الدار فيبادر إلى وضع إبريقة الدياربكري النحاسي عند حافة البئر ويقول لها بحياء: هلّا تملئين لي إبريقي؟ كانت بريخان تبتسم. وعلى جناحي ابتساماتها كانت تنقله إلى النجوم والأقمار، إلى سماوات قصيّة لا تمطر سوى القرنفل ولا يلمع فيها إلّا السوسن. كانت عيناها تشبهان بحيرة وان التي زار سعيد ضفافها خلال إقامته في موش مرات عديدة.

كانت عينا بريخان الزرقاوان تخفيان في أعماقهما حزناً كما تخفي التلال كنوزاً في جوفها.
أراد سعيد أن يهتدي إلى مفتاح كنوز ذلك الحزن دون جدوى. لم يكن يتبادل معها سوى محادثات قصيرة على عجل. كلمات قليلة أو ربّما بضع جمل غير مترابطة مثل: هل أذّن الظهر؟ أين أمّي؟ هل أغسل يا مولاي قبّعتك وجواربك؟ هل أملأ إبريقك بالماء الدافئ؟
كان سعيد حين يخلو بنفسه ويتذكر أحاديثه تلك معها، يندم لأنه لم يسهب في الحديث معها ولم يقل لها كلمة حلوة. بقيت بضعة أوتاد فقط لتظلّل خيمة الحبّ على قلبه جميعاً.
- الحبّ يُنطق الحجارة.
هكذا قال له ذات مرّة طالب الفقه خالص البدليسي، صاحب الغلايين الخشبية وخبير حرائق القلوب والتبغ. كان خالص قد عشق فتاة أرمنية ودأب على الطواف ببيتها كلّ ليلة جمعة وثلاثاء. وحين كان يعود من ذلك الطواف كان رفيقه سعيد يسأله:
- ألا تخاف من إخوتها؟ ألا تخاف من أبيها؟
- إنك لم تجرّب العشق يا سعيد. لا قدَّره الله عليك. العاشق مجنون لا يعرف الحياء ولا الخوف.
تذكّر سعيد هذه الكلمات وقاس نفسه بذلك العاشق البدليسي، عرف أن رحى الحب لم تطحن حبّة قلبه بعد.

ـ لماذا أرتجف حين أراها؟ أتلعثم كأنّ لساني مقيّد ويكاد قلبي يتحطم من الرجفة. لم أكن خجولاً إلى هذه الدرجة.

مع تلك المشاعر التي كانت تشلّ لسانه أمام بريخان، هبّت على جسده رياح الذكورة أيضاً. صار يخجل ويلعن الشيطان ألف مرّة ويلوذ بقراءة آيات من القرآن المعلق في حقيبة من المخمل إلى جدار غرفته. كان يظنّ أن الحبّ بعيد عن قذارة الجسد. قرأ في كتب الفقه أن الفتى حين يبلغ يفيق أحياناً وقد تبلل سرواله بالمنيّ، وهذا ممّا يوجب الغُسل. لم يكن يريد أن يفسّر أحلامه الشيطانية الكثيرة بذلك الحب الذي بدأ يجذبه إلى الأعماق.

كان يرى بريخان في أحلامه مغلفة بالضباب. لم يكن يرى منها بوضوح سوى عينيها. حاول كثيراً أن يحمي بريخان من سيول الذكورة، أراد أن تكون آثار أقدام بريخان على ثلوج روحه آثاراً من نور مقدّس فقط.

***

مضى شتاء ذلك العام هكذا. ترك آثار برده الثقيلة في الأرواح لكنه لم يترك في قلب سعيد سوى ضرام نار أدفأت روحه وغسلت فؤاده بنورها. رؤية ذلك القوام الممشوق، تينك العينين الجميلتين الحزينتين، تلك الابتسامة الفاتنة من الثغر الشبيه بسلّة ملأى بالفواكه، وسماع تلك الأحاديث المقتضبة التي كثيراً ما كانت تبقى ناقصة لم تكتمل، كان كلّ ذلك حطباً

زاد من ضرام تلك النار الخفيّة المشتعلة حديثاً في قلبه.

مع قدوم الربيع، أراد والده الشيخ محمود أن يرسله مرة أخرى إلى موش لإكمال تعليمه:

- سعيد يا بنيّ. اذهب إلى موش وأكمل دراستك لدى شيخك. أنت تعلم أنّه لا وقت لديّ لأجلك.

كان الربيع قد بدأ يرسل رسله من الأزاهير. تفتّحت القلوب أيضاً حين تفتحت تلك الأزاهير. اضطرّ سعيد الذي ذاق لأول مرة حلاوة الحبّ أن يذعن لأمر والده ويتوجّه من جديد إلى موش بعيداً عن بريخان.

وذات صباح قليل البرودة، حمل كتبه وجوزة خضر البوطي ووضعها في حقيبته. ودّع أباه وأمّه ثمّ امتطى صهوة فرسه الصقلاوية وخرج. تبعته بريخان بعينين مغرورقتين بالدمع ووجه حزين. لم تقل شيئاً. سلّمته منديلاً صغيراً. تلفّت سعيد حوله ودسّ المنديل في كمّ ثوبه. وانطلق يعدو دون أن يقول هو أيضاً أيّ شيء.

تنفّس سعيد بعمق أنسام الربيع المحمّلة بعطر الحبق والقرنفل والأقحوان والنسرين وشعر بريخان الذي لم يكن قد رآه بعد ثمّ غصّ بألم فراقه عن قامتها.

***

غلبت رائحةُ حبل المشنقة المغطس بالزيت رائحةَ تلك الأزاهير التي تفتّحت ذلك الربيع واحتفظت بها ذاكرته كلّ

تلك السنين. كان العطش سكّيناً شطر جبنة خياله، فتّتها. كلما غاص في بحيرة إحدى الذكريات أخرجه العطش منها إلى ضفاف المشانق ليرى قامات أولئك الصناديد معلقة كعناقيد العنب في دالية كرم أواخر الخريف.

لمح الشيخ بين تلك الأجساد المعلقة مشنوقاً ما زال جسده يرجف. تذكّر الأسماك التي كان يلقي بها نهر هادر إلى بحيرة وان بالقرب من مدينة أخلاط. كان الفتى سعيد يتنزّه هناك ذات يوم من شهر أيّار مع بعض رفاقه فرأى صيّاداً عجوزاً يخوض النهر ويغرف الأسماك غرفاً بقفة كانت في يده ثم يرميها على حصيرة كانت وراءه على الضفة.

تفرّج الفتية على حركات الأسماك التي يرميها العجوز. كانت تتقلب وتتلبّط في البداية كثيراً. تحاول العودة إلى الماء. بعض الأسماك كان ينجح في الوصول إلى النهر. لاحظ سعيد أن السمكة ترفع في البداية رأسها وذيلها إلى الأعلى حتى تتقوّس، ثم تضعف قواها بعد لحظات فلا تحرّك سوى ذيلها. وأخيراً كانت تفتح غلاصمها على اتساعها لتهدأ بعد ذلك إلى الأبد.

سمع الشيخ جلبة أجساد أخرى فيها بقيّة رمق من الحياة. سمع نشيجاً يشبه نشيج حناجر الكباش المذبوحة صبيحة أعياد الأضحى.

- من هو الذي فكّر في قتل الإنسان عبر خنقه بحبل أول مرّة؟

تساءل الشيخ. شعر بحكّة عجيبة في حنجرته. شعر بالغثيان أيضاً. كاد الزرّ الذي يعقد ياقة قفطانه المخطط ينفلت. بلع ريقه وتنفّس بعمق فاهتز حبل المشنقة.

***

- الدولة صارت قطعة جبن تكالبت عليها الفئران من كل الدنيا.

قال شيخه في موش في إحدى جلساته مخاطباً ضيوفه وهو يفكّ زرّاً في ياقة قفطانه.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها سعيد حديثاً من ذلك النوع. للمرة الأولى يسمع سعيد حديثاً عن الإنكليز والفرنسيين والروس وجواز أو عدم جواز الثورة على الباب العالي من وجهة نظر الشرع. كان شيخه قد جاب أقطاراً كثيراً ورأى مدناً عظيمة مثل دمشق وبغداد وسافر مرّتين إلى الحجاز.

- تلك الجبنة يستفيد منها الجميع ما عدا الكرد. ولا يقف الأمر عند هذا الحد فقط، بل إن الكرد هم القطط التي تحمي تلك الجبنة من أنياب الفئران.

قال ذلك الشيخ ذات مرة وهو يحتضن كتاباً بغلاف من جلد الغزال مزركش جميل. كان ذلك الكتاب رفيق الشيخ حتى إنه كان يطالعه أكثر من القرآن. وحين كان يختلي بنفسه كان يدوّن على حواشيه الصفراء مثل دروب على أطراف الغابات. كان الشيخ يدأب على تصحيح بعض الأسماء أو

التواريخ أو تدوين ملاحظة ما بالخط الغباري الناعم ثم يمتلئ بمشاعر الغبطة.
في أحد الأيّام سأله سعيد:
- ما هذا الكتاب يا سَيْدا؟[10]

[10] سيدا: هو لقب عالم الدين في الكردية.

وضع الشيخ إصبع الشهادة بين صفحتي الكتاب ونظر من فوق نظارته إلى سعيد ثم قال:
- هذا هو كتاب شَرَفْنامه يا ولدي.
وذات مرّة احتدم النقاش في مجلس شيخه. قال بعض الملالي: إن تعامل بعض الكرد مع الروس غير جائز شرعاً. وردّد أحدهم وهو من بلدة أَرْجيش كمن يلقي حجر نرد:
- الروس أعداء الإسلام.
كان هناك طالب فقه اسمه رستم من ملاذكرد وأحد مريدي الشيخ عبيد الله النهري وكان على وشك أن يتخرّج ويصبح ملا:
- أقسم بالقرآن العظيم أن الروس ليسوا فقط كفّاراً بل إنّهم ليسوا حتى بشراً. منذ سنوات عديدة وهم يذيقوننا الأمرّين. اسألوا سكان قارص وبايزيد وأرضروم عن الذي فعله الروس بهم. والله لولا جنود السلطان المنصورون لكانت نساؤنا الآن خادمات لدى الروس. إنهم لا يختلفون قيد شعرة عن الشيعة القزلباش. إنهم يتهيّأون من جديد لحربنا.

ردّ عليه الشيخ بهدوء:
- لا لا. هذه مسألة أخرى. عداوتهم ليست دينية. إنهم أصحاب دول ولهم مصالح. فإذا توافقت مصالهم تفرّغوا لنا. وحين يخوضون الحروب نصبح نحن وقوداً لها. نحن الخاسرون في الحالتين.
احتدّ سليم الزازائي، نهض وقال:
- وحق عرش الله تعالى سأصادق الروس لقتال هؤلاء الأروام العثمانيين. ما الخير الذي أتانا منهم يا رستم أفندي؟ ورد في التاريخ أن ملاذكرد أول مدينة علت فيها قرقعة سنابك خيل العثمانيين. الآن عرفت لماذا.
مثل هذه النقاشات كانت تحتدم كثيراً من المرات حتى الفجر في حجرة المسجد ويشارك فيها الطلبة الذين هم على وشك التخرج ونيل إجازاتهم من شيوخهم. هناك بدأ وعي سعيد يزداد يوماً إثر يوم. كان الحب يشعل قلبه من جهة وتلك النقاشات تشعل وعيه من جهة.
أحياناً كان يدور الحديث عن بدرخان باشا ويزدان شير. كان رستم يعلق بالقول:
- كيف خرج هؤلاء على وليّ الأمر؟ ها؟ والله إن ما فعلوه خروج عن الدين.
- يا رستم لا تقل ذلك. إنّهم قومنا الكرد. أمّا هؤلاء الأروام فمن قال لكم إنهم يمثلون الإسلام؟
- يا سيدا ألا تقول الكتب ذلك؟ ألا يقول القرآن ذلك؟

كان الشيخ يحتدّ، يضع كتاب شرفنامه من يده ويقول:
- وقع الحمار في الطين مرة أخرى. أتعرف أن الحمار حين يغوص في الوحل لا يقدر عشرة بغال على إنقاذه؟

***

في إحدى الأمسيات أخذ خالص بيد سعيد بعيداً عن تلك الحجرة واتّجه به إلى شجرة التين التي لم تكن قد أورقت بعد وقال له ضاحكاً:
- تبّاً لهم. كأنهم من دراويش القادرية المجذوبين. ذبابة في جوف قرعة لا يمكنها أن تصدر مثلهم كلّ هذه الضوضاء.
- لكنهم يقولون أشياء مثيرة.
- فليقولوا ما يشاؤون. تعال لتقول لي أنت ما أخبار حقل فؤادك؟
- ماذا؟
- الطاعون الأسود. العشق. لا يمكنك أن تخفي عنّي. أنا أتابعك من يوم عودتك ولاحظت أنك مضطرب. وجهك المصفرّ يكشف الغطاء عن قلبك.
وقبل أن يجيب سعيد، سأل:
- هل هي جميلة؟
- إنها مثل قطط وان.
اضطرّ سعيد لأن يستسلم بعد أن حاصره خالص. اضطرّ لأن يعترف بحبّه، بتلك النار الصامتة التي تلتهم قلبه. لكنّه

سأل قبل أن يعترف:
- قل لي بربّك كيف عرفت؟
أفرغ خالص غليونه من رماد التبغ، ضرب رأسه عدّة مرات بجذع التينة وقال:
- أن تخفي الحب كأن تدخن دون أن ترتفع فوقك سحب الدخان. أن تحب وتخفي الحب كأن تتفتح الوردة دون أن تنتشر عبيرها.
ورفع صوته يصدح بأبيات شعرية من قصيدة للملا الجزيري:

لا عجب إن امتلأت الدنيا ناراً ودخاناً من آهاتنا

ففي قلبي نارٌ أشدّ ضراماً من نيران الجحيم.

اشتاق سعيد الذي أفضى بما في قلبه إلى بريخان. كان الحديث عنها يسليه. صار يشمّ منديلها الحريري الأخضر المطرّز في منتصفه بشمس ذهبيّة ذات سبعين شعاعاً ويحكي لصديقه خالص عن مشاعر الحبّ كلّ مساء تحت شجرة التين.

***

- هي من قارص.

فك سعيد رباط قِربة الحديث ثمّ أراق عسل حكاية حبيبته على مسامع خالص هكذا:

"هاجر أبوها خلال حرب القرم إلى أرضروم. كان يعرف أن المصائب تتوالى في الحروب على رؤوس المساكين من أمثالهم في بلدات إغدر وقارص وبايزيد وغيرها من البلدات والقرى التي جعلتها الأقدار رباط أحذية طرفي النزاع. كان جندياً في الجيش العثماني ويعرف أن ميليشيات الأرمن والجورجيين والعشائر الكردية الموالية للروس لن ترحم أحداً. عرف أن من الممكن أن تتعرّض زوجته للسبي ويبيعها المغيرون في أسواق يريفان أو تبليس. كان حديث العهد بالزواج. فهم أن الحروب تفرّق الرجل عن امرأته. هرب من الجيش مع بندقيته المجرية ووصل في ليلة باردة إلى البيت. وضع أشياءه في بقجة كبيرة، أركب زوجته خلفه على فرسه وانحدر صوب الجنوب في ليلة عاصفة مثلجة. لم يحسب ذاك الفارّ حساب الموت والثلوج. كان قد وضع روحه على كفّه ولم يتوقف إلا في أرضروم بعد رحلة شاقة طويلة. كان ساري باشا العثماني والي قارص قد هرب منها وتركها ككرة ثلج تذوب في كفّ الجنرال الروسي ميلنكوف. أصبحت الدنيا مضطربة والناس حيارى لا يعرفون إلى أين يتجهون. بعد عام وجد والد بريخان نفسه في حرب مع جنود الدولة العثمانية. انتفضت موش، وان، وأرضروم دفعة واحدة في

وجه الدولة. وُلدت بريخان في تلك المعمعة. كان عمرها بضعة أشهر حين قُتل والدها. ظنّت أمّها أن الموت يكمن في الشمال فانحدرت أكثر صوب الجنوب حتى وصلت إلى بلدة خنوس ومنها وصلت مع ابنتها إلى بالو. حين كبرت ابنتها جاءت إلى بيتنا وقالت لوالدي: "يا مولاي ليس لنا أنا الأرملة وهذه البنت اليتيمة أحد. فلتبق في بيتكم لتخدمكم وتنال مراحمكم. إنني أهبها لكم".

ضحك خالص البدليسي الذي كان يستمع بصمت للحكاية وينفث دخان غليونه من طرف فمه. علت ضحكته وقال:

- بارك الله فيك يا سعيد. لكن قل لي بالله عليك هل أنت تروي لي تاريخ الحرب أم سيرة القلب؟

قال سعيد بنبرة غلفها الخجل:

- لا أدري. كنت أتحدّث عن بريخان.

- سامحك الله. حدثني عن قلبك، عن نبضه حين يلامس كفّك كفّها. حدثني عن جمالها لا عن المدافع والقنابل. لا يهمّني ماذا فعل أبوها ومن هي أمّها يا أفندي.

هنا تحمّس سعيد وبدأ يروي كيف أنه عاد من موش ورآها في باحة الدار وكيف أن بريخان اتّخذت لنفسها ركناً في قلبه واستقرّت هناك رويداً رويداً. ماذا قال لها وماذا قالت له وما الذي لا يجرؤ على قوله لها. صارت أمسياته مثل بطيخة قسمت إلى نصفين، نصف في الحجرة لحضور مجلس شيخه ونصف تحت شجرة التين مع رفيقه خالص.

***

ـ لو كان عندي الآن قطعة بطيخ لرويت بها عطشي.

أطلق الشيخ سعيد هذه الأمنية وسرعان ما عاد إلى حقول خياله ليجني مزيداً من الذكريات.

كان شيخه يمازح في بعض المرات رفيقه رستم طالب الفقه من ملاذكرد كثيراً وقال له ذات مرة:

ـ أتعرف شيئاً أكبر من بطّيخ دياربكر في هذه الولايات؟

فغر رستم فمه دهشة ثم صار يغمض عينيه مرات متوالية مظهراً اهتماماً جدّياً بالموضوع ثم قال بفرح:

ـ القرعة! القرعة التي تبقى في الحقل حتى أواخر الخريف.

ضحك الشيخ، ضربه على كتفه بالسواك ثم قال له:

ـ لا والله لم تصب. رأسك أكبر حتى من تلك القرعة لكنه فارغ.

كان رستم جاهلاً وعنيداً مشاكساً في الوقت نفسه. كان يعتبر كونه أحد مريدي الشيخ عبيد الله النهري أهمّ من العلم والمعرفة لديه. كان طلاب المدرسة كلهم من الطريقة النقشبندية الصوفية لكن رستم كان يغالي في انتمائه حتى ليحسب نفسه شاه نقشبند نفسه:

ـ التقليد وحده لا يكفي يا فقه. لا بدّ من القياس أيضاً.

ـ السلطان عبد العزيز إمام المسلمين وخليفتهم. ومن يناهضه أو يضع يده في يد عدوّه كافر بحكم الشريعة. فعلى

ماذا سنقيس هذا يا شيخي؟ أحكام الشريعة واضحة يا سَيْدا!
كوَّر الشيخ مسبحته الأرضرومية السوداء في كفّه وكاد يطحن حبّاتها المئة برحى الغضب. ظنّ الطلاب أن شيخهم يوشك أن يرمي وجه رستم بالمسبحة. لكنّه كظم غيظه وقال:
- عاقبتك وخيمة يا رستم.
في ذلك الربيع احتدمت النقاشات. كل ليلة كان الطلاب يجتمعون ويحاصرون رستم بالحجّة والمنطق ولا سيّما خالص البدليسي الذي كان يسخر منه ويقول:
- رستو[11]. عندي قليل من التبغ الفاخر. ألا تشتريه؟ إنه روث حضرة البادشاه لو دخنته لدخلت الجنّة بلا حساب.

11 رستو: محرفة من رستم. والأكراد يحرفون الأسماء إما تحبّباً أو تنابزاً بالألقاب.

أحياناً كان خالص يعمد إلى غمس رأس سواك رستم في التبغ ثم يعيده إلى جيبه دون أن يعلم بذلك. وحين كان رستم يتسوّك يُفاجأ بطعم التبغ ويقفز في الهواء ثم يركض إلى الأباريق الموضوعة حول بئر المسجد، يتمضمض بالماء ويصرخ:
- أحلف برأس الشيخ أعرف من فعل هذا. إنه ذلك الإبليس الصعلوك خالص.
يردّ عليه خالص ضاحكاً:
- والله يا رستو لو كان في حوزتي السم السليماني لوضعته لك بدل التبغ.

وأحياناً كان خالص يخلع نعله ويصفع به قفا رستم قائلاً:

- هيه يا رستو! ألا يمكن الجهاد بالنعال أيضاً؟

ضاق رستم ذرعاً بالإقامة في موش. ساءت علاقاته بالجميع، بزملائه الطلاب وبالشيخ أيضاً. صار يذهب للمبيت في مسجد علاء الدين وأحياناً يذهب إلى المسجد الكبير يبقى هناك إلى أن يتأكد من أن خالص قد أخلد للنوم فيرجع. كان خالص يفاجئه في النوم أحياناً فينفث دخان الغليون في منخريه. لم يجد رستم مناصاً من ترك المدرسة وغادر بوجه متجهّم مع قافلة يمّمت وجهها شطر بايزيد ذات ليلة سوداء كالكُحل.

***

- وليلتي هذه كحلٌ.

قال الشيخ سعيد في سرّه وهو أسفل المشنقة. ثم غزت عينيه حكّة رهيبة.

في شبابه وضعت بريخان عدّة مرّات الكحل لعينيه في الربيع حين كانتا تصابان بالرمد. كانت تعمد إلى شراء حجر الإثمد الذي يأتي به التجّار من سفح جبل "سُبحان" وتضعه في البداية على نار موقدة من خشب الجوز إلى أن يصبح مثل جمرة متوهّجة ويتفتت إلى قطع صغيرة تتوزع هنا وهناك. ثم تعمد إلى جمع ذلك الفتات المتناثر وتضعه مع البنّ العربي في ماء لمدّة أربعين يوماً. وأحياناً كانت تستخدم أوراق الحنّاء بدل

البنّ العربي. ثم تضع ذلك الكحل النديّ قرب نار من خشب اللوز إلى أن يجف فتلقيه في هاون من النحاس وتدقه. بعد ذلك تضع الكحل المدقوق في منديل من الكتان الأبيض وتنخله.

كان رنين الهاون يجذب بنات الجيران إلى بيت الشخ محمود حيث يحضرن مكاحلهنّ ويضعنها بين يدي بريخان التي كانت تجود على كل واحدة منهن بقليل من الكحل وتقول: "انتبهن. إن وضع الكثير من الكحل يسبّب العمى".

تعلمت بريخان صنع الكحل في أرضروم وكان كثير من أصحاب الحوانيت في المدينة يضعون كحلها في مكان خاصّ ويبيعونه بأسعار أغلى من أسعار باقي أصناف الكحل.

كانت بريخان، بعد أن تعدّ الكحل، تأتي بفخذ ديك رومي مذبوح حديثاً فتنزع الجلد عنه ليبقى طرياً حتى بعد أن يجفّ. وكانت تضع ذرور الكحل في ذلك الجلد الذي يسمى بَروشك وتربطه مثل صرّة صغيرة. وحين كانت المكاحل تفرغ من الكحل كانت تفكّ فم البروشك المعقود بخيط وتسكب منه بعض الكحل كالليل في المكحلة.

سألتها أم سعيد ذات مرة:

- ممّن تعلمت صناعة الكحل يا بريخان؟

- من عيني أبي اللتين لم تكتحلا برؤية عينيّ.

ذات ربيع حين كان سعيد ما يزال طالب علم في مدينة موش، رمدت عيناه. لم يعد في استطاعته أن يطالع الكتب.

احمرّت عيناه وأصابتهما حكّة لجوج. كان خالص يقول له كلما رآه في تلك الحالة:

لا شكّ في أن تراب طريقها توتياء وكحل

لو وضع في عيني أعمى لأبصر حالاً[12]

12 بيت شعر للشاعر الكردي الشهير الملا الجزيري.

يردّ سعيد وهو يفرك عينيه:

- ليتني كنت الآن في بالو. كنت سأشفى حين أراها.

وذات صباح استيقظ من نومه، أخرج المنديل الأخضر ليشمّه كعادته كلما يستيقظ. وحين بسط المنديل رأى قليلاً من الكحل ممدّداً في ثنايا المنديل كسطر من كتابة.

***

بدا صف المشانق مثل سطر كتابة دوّنتها أصابع أنقرة بقلم من لوزان على ورقة كردية.

لم يكن ذلك السطر سوى صف من حروف الألف المشنوقة، لم يكن سوى قناديل مطفأة في أحد المساجد بعد صلاة الفجر.

أولئك كانوا أصحاب الحناجر التي كانت تصرخ قبل قليل، أصحاب عيون لم تكتحل بالحرّية.

قرأ الشيخ ذلك السطر بعيني قلبه. قلبه الذي كان يُعتصر مثل دلو ماء في يد الظمآن. اغرورقت عيناه بالدموع. كتب الشيخ بدموعه الساخنة هموم وطن.

تذكّر نحيبه ذلك الربيع حين كان في موش.

كان واقفاً على حافة بئر المسجد يشرب من الدلو الذي سحبه لتوّه من أعماق البئر. تذكر أنّه نثر بعض الماء على وجهه ليخفف قليلاً من آلام عينيه. وقفته تلك ذكّرته بالبئر الموجودة في باحة منزله. ذكرته بوقوف بريخان عند الحافة حين كانت تملأ له إبريقه النحاس. ذلك الحين تذكّر ضحكتها، نظرات عينيها الحزينتين. جاش صدره حينذاك، التفّ الحزن مثل حبل على رقبته فانحدرت دمعتان من عينيه المتألمتين بسبب الرمد.

كان صديقه خالص يعرف بوضعه. وكثيراً ما جال في شوارع قلبه وأزقته ودروبه باحثاً عن قصّة حبّ يلفّها الضباب. كان صديقه يلفّ سيجارة ثمّ يقدّمها له ويقول:

- دخّن يا سعيد دخّن. هي مثل البندقية تماماً. أقسم بضريح شرفخان كما أن كل طلقة بندقية تقتل رجلاً فإن كل نفس من هذه السيجارة يقتل همّاً.

كان الدخان المتكاثف حول وجهه المصفرّ يزيد من آلام عينيه ويثير دمعهما. سأله خالص ذات مرّة:

- إن استمرّ وضعك هكذا فالأمر سيّئ جداً. إنك تنحل يوماً بعد يوم. دع آلام العينين جانباً. لكن نحولك هذا لا يدلّ على

الخير أبداً. لقد صرت نحيفاً كشعرة. عد إلى بالو يا أخي. ليس أمامك سوى هذا الحلّ.

كان الوقت ربيعاً. تفتّحت فيه الورود والقلوب والهموم في وقت واحد. صار سعيد يلازم ديوان الجزيري ويقرأ قصائده تحت أضواء القناديل. كان خالص يقول له: هذا قرآن العاشقين. ثم يقرأ منه ما تيسّر:

لنا على جيد الحبيبة مئة قبلة بالدين.

وحين أطالبها بتسديده، تقول: على العين.

ويقول بعد ذلك:

- اذهب يا سعيد. اذهب وطالب بديونك من بريخان. يا رجل! لو كنت مثلك لما ابتعدت عن حبيبتي. أتعرف، إن كنت بعيداً عن عينها فستبعد عن قلبها أيضاً؟

لم يعد لسعيد أيضاً قدرة على مزيد من الصبر على الفراق فطلب من أستاذه الإذن بالعودة إلى بلده بحجّة المرض. ويمّم وجهه صوب البيت.

***

الطريق التي كانت في الشتاء الماضي قطعة من جليد، صارت في ما بعد قطعة من الفردوس. كان سعيد يمشي

بمحاذاة نهر مراد. كان الاثنان يجريان وقلباهما يموران حبّاً.
ولكي يصل سعيد إلى الضفة الشمالية من النهر انعطف صوب داراهيني وسالوخان ليعبر من هناك جسر عبد الرحمن باشا. وبعد أن سار فترة من الوقت اقترب من الجسر. كانت الشمس غربالاً يتسرّب منه طحين ذهبي يتناثر على ضفتي النهر. أمّا قمّة جبل شرفدين فقد بدت من بعيد مثل قبّعة طالب فقه مغموسة في الذهب.
كان الأفق في ناحية بالو رائقاً صافياً مثل عيني بريخان. لم يعكّر صفو ذلك الأفق الرائق سوى غيمة صغيرة نسيتها الريح هناك.
كان ذاك الصباح رائقاً لطيفاً نقيّاً مشرقاً مثل حبّه.
حين بلغ سعيد الجسر نزل من حصانه. أراد أن يصغي قليلاً إلى صخب النهر الذي أنطقه الربيع. أراد أن يشرب قليلاً من الماء أيضاً فقد خرج من موش دون أن يشرب. فجأة سمع صوتاً يعرفه:
- سعيد. سعيييييد.
لم يكن هناك أحد. نظر أسفل الجسر، بين الأشجار هناك، تلفّت حواليه جيداً دون أن يرى أحداً. لفّ الخوف عباءته الزرقاء على قلب سعيد. أمسك لجام حصانه واستمرّ يمشي. سار بضع خطوات ليسمع ذات الصوت مرة أخرى يناديه:
- يا سعيد. إيّاك أن تسير على هذا الجسر مرّة أخرى. هلاكك في العبور عليه.

وتدحرجت حبّة جوز عند قدميه.
قرأ سعيد وهو ما يزال ملفوفاً بعباءة الخوف بضعَ آيات من القرآن، تفل عدّة مرات من فوق كتفه اليسرى ثم امتطى حصانه ومضى يعدو به مسرعاً لا يلوي على شيء.

***

كان جواد الظلام يعدو صوب نهاية الليل حين انشغلت أنامل خيال الشيخ الظمآن سعيد تخيط سنوات عمره بإبرة من خوف وخيطان من ألم.
تراكمت السنوات أمام ناظريه في تلك الليلة مثل قصاصات قماش فخاطها الشيخ بعضها إلى بعض، جعل منها منديلاً أخضر كالربيع تتوسّطها شمس كشمس ذلك الصباح قبل خمسين عاماً حين عبر بحصانه جسر عبد الرحمن باشا.
خشي الشيخ ألّا يعينه الخيال في رسم ملامح منديله ذاك فقفز فوق بعض الأعوام وأهمل التفكير فيها. صار يعصر عناقيد الزمن في خياله ثمّ يشرب ولا يرتوي. يزداد ظمأً على ظمأ.
لاح وجه بريخان الربيعي النضر مثل فراشة حول حلقة المشنقة. حامت تلك الفراشة مثل إبرة من الضوء في خيال الشيخ المشغول بخياطة سنوات عمره.
في ربيع ذلك العام في بالو، كان الفتى سعيد يداوي رمد عينيه برؤية قامة بريخان. تلك القامة صارت مكحلة لعينيه.

بنى في زرقة عينيها عشّاً لقطاة قلبه وطفق يغسل روحه في أتون حبّها الصامت.

كانت بريخان، خبيرة صناعة الكحل، تأتي كل مساء بصُرَّة الكحل المعلقة إلى الحائط فتسكب منها قليلاً في المكحلة الفضّية ثم توغل فيه الميل لتكحل به بعد ذلك عيني الفتى سعيد.

وما إن تنهض بريخان حتى يسمع سعيد صدى نسمة فردوسية يثيرها فستانها. ينظر إليها من الخلف فيرى جديلتيها الذهبيتين تتراقصان فيتراقص قلبه معهما في أرجوحة من حرير.

أحياناً، كان سعيد يمسك يدها ويقول لها برقّة:

- بريخان، الرمد في روحي وليس في عينيّ.

فتسحب يدها مثل حمامة بيضاء من فخ يديه وتقول:

- يا شيييخ! ألا تخشى أن يرونا.

كان الفتى سعيد يبحث عن ذرائع شتى في سبيل أن يلتقي حبيبته بريخان. يذهب عدّة مرّات إلى جناح الحريم ليسأل عن مسواكه مثلاً، أو يبحث عن قلنسوته الضائعة حتى قالت له إحدى الخادمات ذات مرّة مازحة:

- مولاي! ستسأل ذات يوم عن حصانك أيضاً.

شُفيت عيناه خلال بضعة أيّام. والقلب؟ كانت آلامه تزداد يوماً بعد يوم ولم يعد في إمكانه أن يخفيها.

كانت لقاءاته مع بريخان قصيرة كلها. فما إن يختلي بها ويفشي لها بكلمتين حتى يسمع صوتاً ينادي:

- بريخااااااان! تعالي بسرعة.

وكانت بريخان تلبّي النداء تاركة سعيد مع حرائق قلبه.

وذات لقاء في إحدى الأمسيات، سمع الاثنان صوتاً ينادي بريخان. أمسك سعيد بيدها ونظر إليها بعينين مليئتين تضرّعاً. أسكرته عيناها الزرقاوان. رأى في أعماقهما عاصفة مجنونة أثارت أمواجاً قويّة قلبت سفينة عقله.

لمعت عيناه وأسرع يحتضن تلك القامة الشبيهة بحرف ألف. شمّها بكلّ ما في رئتيه من قوة، قبَّلها، وضع رأسه بين ثلوج صدرها وصار يبكي مثل آثم يطوف حول الكعبة:

- أحبّك.

قال لها وهو يمسح دمعه.

فوجئت بريخان. لم تعرف كيف تتصرّف. أبعدت رأسه عن صدرها وقبّلت جبينه. ثمّ قالت له بصوت رقيق يشبه حفيف أوارق الورد في السحر:

- وأنا أحبّك أيضاً.

ثمّ غادرت حضنه بسرعة وخوف.

***

كاد الحبل المتدلي أمامه يقع في حضنه. تلك كانت قامة تشبه الألف وهذا حبل يشبه الألف. بين تلك الألف وهذه الألف

تأرجحت قِربة خياله. اغرورقت عيناه بالدمع مرة أخرى. اغرورقت بالدمع مرّة أخرى تانك العينان اللتان كانت بريخان تداويهما بالكحل مرة وبقامتها وابتسامتها الفردوسية العذبة مرات ومرات في ذلك الربيع. كانت عينا الشيخ الآن لا ترنوان إلّا إلى حبل يتدلّى من مشنقة تنتصب أمامه.

من ألف قامة بريخان حتى ألف المشنقة كان عمر من السنوات يجري مثل نهر مُراد. يجري في الأودية، في المرتفعات والمنحدرات، ويسقي خياله الظمآن.

اختفت النجمة التي كانت تلوح من خلال حلقة الحبل قبل قليل. نجمته البيضاء أيضاً اختفت في بياض درب التبّانة فلم يعد لها أثر. تراءى للشيخ في حلكة ذلك الليل وجه بريخان الربيعي مثل نجمة لامعة. ابتسم الشيخ. نظر الجنديّان الممسكان بكتفيه بعنف إلى وجهه وتلك الابتسامة التي انتشرت مثل مرج هناك، ثمّ استعدا للصعود به إلى كرسيّ الإعدام.

أمّا الشيخ فقد قلَّب السؤال في ذهنه، أراد أن يليق سؤاله بوقفته تلك أمام المشنقة. أراد أن يكون سؤاله سؤال صوفي نقيّ السريرة لم يترك حجاباً بينه وبين ربّه. أراد أن يقف أمام الله وجهاً لوجه ويطرح سؤاله بين قدمي الربّ قبل روحه.

لكنّه تلكأ مرة أخرى. قال لنفسه:

- لم يحن بعد أوانُ وضع المفتاح في قفل السماء.

***

- السؤال مفتاح كل باب موصد.

قال له أبوه حين كان طالب فقه. وكان هو دائم السؤال. يسأل شيوخه، يسأل زملاءه في الدراسة، يسأل أباه. كان يسأل أيضاً رفاقه في تلك الثورة الظامئة. أطلق أسئلته مثل اليمام أمام كلّ أذن.

- الظمأ سؤال طويل جوابه الماء.

قال خضر البوطي ذات صيف قائظ تحت شجرة التين في مسجد موش.

- ها أنذا أمضي إلى لقاء ربّي دون جواب.

همس الشيخ لنفسه وألقى نظرة على المشانق المنتصبة هناك في عتمة الليل.

كان المشنوقون رفاقَه الذين ضجّت الزنازين بصرخات حناجرهم قبل ساعة كأنّهم خليّة نحل. كان بعضهم يضحك، يقول أحدهم للآخر:

- فلنضحك. فلنضحك حتّى ونحن نصل إلى مشانقنا. فلنضحك حتى نغيظ هؤلاء الأوغاد.

قال الشيخ لنفسه:

- لا شكّ في أن الحبال تلتفّ على تلك الحناجر الآن، لا شكّ في أن ألسنة رفاقي المشنوقين تمتدّ من أفواههم في هذه اللحظة.

أراد أن يمدّ يده إلى رقبته التي غزتها حكّة شديدة. لمعت دموع في عينه. حمد الله على أن الوقت ليل وأن الجنديّين لن يريا دمعه.

تذكّر منديل بريخان الأخضر الذي تتوسّطه شمس ذات سبعين شعاعاً. شعر بقلبه تينة ناضجة سقطت من غصنها.

كان قد قطع وعداً على نفسه مع بريخان ألّا يستعمل ذلك المنديل إلّا لتجفيف دموعه. رفعت بريخان يديها نحو السماء، حين سمعت وعده ذاك، وقالت بتضرّع:

- أرجو ألا تدمع عيناك الجميلتان ما حييت.

لكن عينيه الجميلتين دمعتا. انفطر قلبه لأنه لم يستطع أن يمسح دمعه بذلك المنديل الذي بقي خمسين عاماً في جيب من جيوب سترته قريباً حيث ينبض قلبه.

حين ألقي القبض عليه وجيء به إلى سجن دياربكر، كان ذلك المنديل من بين حوائجه التي صودرت.

المنديل الذي كان يشبه بخضرته قطعة من ربيع سرحدان وضفتي نهر مراد، والذي بقي في جيب الشيخ مخبوءاً كأحد الأسرار، أصغى لمدة خمسين عاماً لنبض قلبه. بقيت آثار أصابع بريخان المحنّاة مثل غيوم الشفق بادية على الشمس التي تتوسّطه.

ذلك المنديل أثار عاصفة من الأسئلة لدى المريدين. بعضهم قال:

- لا شك في أن هذا المنديل خرقة من الأقمشة الملقاة على ضريح النبيّ، لذلك لا يسمح الشيخ لأحد بأن يلمسه.

في مرّات كثيرة كان خالص البدليسي خلال أيّام الدراسة يخطف المنديل من جيبه ويهرب إلى زاوية في المسجد وينشد بصوت عالٍ:

أعطتني الحبيبة منديلاً

منديلاً
هيا باركوا لي
باركوا لي
منديل الحبيبة أخضر
نعم أخضر
تفوح منه رائحة الورد والمسك

الورد والمسك.

لم يكن الفتى سعيد يستعيد منديله إلا بعد لأي وتضرّع ومناشدات طويلة ثم ينكب عليه لثماً وتقبيلاً ويطويه ليعيده إلى حيث كان في جيبه قريباً من خفق فؤاده.

***

صار قلبه، الذي كان منديل بريخان، يصغي لمدة خمسين عاماً إلى أنغامه، يدق أضلاعه يريد أن يخرج. كاد صوت نبض قلبه يطغى على خرير أمواج الذكريات، ذكريات شبابه وحتى بداية المشيخة وقبل كل ذلك سنوات حبّ شهيد.

هبّت نسمة رخيّة هزت الحبل فتذكر جديلة بريخان التي كانت تهتز على كتفيها مثل جدول من الذهب. كانت تلك الجديلة تنسلت بسبب مشيتها السريعة من تحت المنديل وتهتز يميناً ويساراً مثل ذلك الحبل المنسلت من تحت منديل ليل دياربكر الأسود في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

كان الشيخ، حين كانت بريخان تتقافز مثل ظبية في برّية خياله وترعى هناك، يلجأ إلى ديوان الشيخ أحمد الجزيري أيام كان طالب فقه في موش ويترنّم مع صديقه خالص بأبياته حتى الفجر حتى ترتجّ جدران المسجد.

- هذا هو العشق الحقيقي يا صاحبي.

كان خالص يصرخ حين يصل إلى بيت من أبيات الديوان الجميلة.

وأحياناً، كان سعيد يحتضن ديوان حافظ الشيرازي ويترنّم بهذا البيت:

إلى متى العشق والصبر يا حافظ؟

إن أنين العاشقين عذب فهيّا نسمع أنينك

عند ذاك كانت يمامة قلبه تنوح على غصن الفراق.
وحين كان رستم الملاذكردي يرى كيف أن رفيقيه خالص وسعيد يخوضان لجج الحب، كان ينزل مثلهما إلى تلك اللجج ويقول:
- أقسم برأس الشيخ عبيد الله إن سعيداً وقع في حب ابنة المدرّس؟
لم يكن خالص يردّ عليه لكنه كان يردّد بيتاً من أبيات الجزيري بصوته الجهوري:

لا تسألوا آلام الحب ممّن لم يذق الآلام ولم يتجرّع المرارات

ماذا يعرف الأغرار عن آلام قلب تملأه الحرقة والحسرات؟

وذات مساء، قال شيخه الجالس تحت أضواء قنديل يتدلى من سقف المسجد فوق المحراب:
- الحب عَطَشٌ وعطش الحبّ لا يشبه العطش إلى الماء. إن شرب ماء الحبّ يزيد المرء عطشاً. العاشق الحقيقي يزداد ظمأً على ظمأ كلما ازداد مكوثه عند نبع العشق.
في إحدى المرّات أدرك الشيخ من خلال أسئلة تلميذه سعيد أنه واقع في أسر الهوى. أمسك بيده ثم أجلسه بجانبه قرب

إحدى صواري المسجد وأنشد له مبتسماً بيتاً للجزيري:

إن كنت أيها العاشق طالب مسألة فتعال إليّ، إنني مفتي العشق
أحمل نص القرآن في يد وفي اليد الأخرى كتب الحديث

يا بني إن العشق نوع من النار فهو ينير القلوب ويحرقها أيضاً. وإن قلباً لا يصبح قنديلاً مضيئاً ثمّ لا ينفجر في نور العشق، لم يذق العشق أصلاً. القلب الذي لا يصبح تنّوراً مسجوراً لا يليق به أن يبقى بين أضلاع المرء. العشق موتٌ والعشق حياةٌ أيضاً.

ثمّ حدّثه الشيخ عن صوفي شهير تحدّث في أحد مساجد بغداد ذات يوم عن العشق. كان الناس يصغون إليه مغمضي الأعين وهم يحنون رؤوسهم. تحمّس الصوفي وصار يشرح الجوانب الناريّة للعشق، وفجأة انفجرت قناديل المسجد وتحوّلت إلى رماد مشتعل سقط فوق رؤوس الجالسين الخاشعين. ثم مدّ الشيخ يده إلى قلبه وقال لسعيد: "أرأيت يا ولدي! يستطيع العشق أن يجعل القناديل تخرّ من السقف فلماذا العتب على قناديل تضمّها الصدور؟".

كان سعيد العاشق يرغب في أن يمدّ بساط قلبه أمام أستاذه ويقول له: "إنني رأيت وجهيْ العشق وإنّ لذع نيرانه وصل إلى العظام وإنّ القلب غاص في نوره وإنّ قنديل قلبه على وشك الانفجار" لكنّ لسانه لم يطاوعه على هذا الاعتراف. كان لسانه قد وقع في حلقة حبل الحياء فنهض من عند الأستاذ وفي فمه عطش الصحراء.

***

بذلك العطش ذاته وقف الشيخ سعيد في تلك الليلة أمام حبل

مشنقته التي كانت تنتظر رقبته. عطشه فجَّر الينابيع في خياله فتدفقت السواقي والجداول، ثم تذكّر البئر التي كانت تتوسّط باحة دارهم. تذكر كيف أنه كلما كان يرى بريخان بجانب البئر يسرع إليها بإبريقه ويقول لها: ”إنني عطشان يا بريخان“. كانت عينا بريخان الشبيهتان ببحيرتين تزيدان عطش روحه. وكانت بريخان تسحب الماء من البئر وتدلق ما في الدلو في إبريقه فتملأه وهي تقول مبتسمة:

- لا حيلة للمرء أمام عطش القلوب.
- عيناك يا بريخان، عيناكِ.
- يا شييييييخ.

وكان الإبريق يمتلئ دون أن تدرك بريخان ذلك. كان الماء يسيل على جوانبه، ماء صافٍ مثل حبّهما، عذب مثل وجه بريخان.

ذلك العام أصبح سعيد وبريخان لصّين من لصوص الزمن. لم يفوّتا دقيقة واحدة. وكلما كانت بريخان تذهب صوب البئر أو صوب أشجار التين والرمان والتوت لتكنس حولها، كان سعيد يطلّ من النافذة ثم يخرج إلى باحة الدار ليبقى قريباً من بريخان يوقد تنّور قلبه من شعلة حبّها.

كانا يضطرّان للتخفيف من لقاءاتهما وإبقائها محصورة في لقاءات عابرة خاطفة حتى لا يثيرا فضول الخادمات وكلام الناس.

بقي سعيد ظامئ القلب ذلك الصيف.

في قلبه استعر تنّور حب هادر وصار يجبي ضريبة الجمال من عيني بريخان بينما انشغلت الجيوش العثمانية والروسية بإيقاد أتون حرب جديدة.

ساءت أحوال الناس بسبب تلك الحرب. جال جباة الضرائب والعشور مع عناصر الجندرمة في كل القرى والأقضية والنواحي ليجبوا باسم القانون المكوس والضرائب ويستولوا على قطعان الغنم وينهبوا من الناس ما لديهم من ذهب وحليّ نساء وأموال. أجبرت الحكومة القبائل الرحّل على التوطين ليفرضوا عليهم ضرائب لا يدفعها إلا الحضريون.

كان الناس يشمّون رائحة الحروب قبل وقوعها حتى بسنتين ويعلمون علم اليقين أن الباب العالي يعدّ العدة لحرب كبيرة إذ كانت الحكومة تبعث موظفيها لجباية الضرائب من الناس الذين أرهقت ضرائب زمن السلم كواهلهم أصلاً.

كانت ثمة ضريبة على كل شيء: السمك، التبغ، الملح، الحطب وحتى الجوارب الصوفية التي كان العجائز يرتدونها. فاق الجور الذي ترتكبه السلطات من خلال نظام الضرائب كل الحدود وصار الناس يبيعون حيواناتهم بأرخص الأثمان: الجدي بقرش واحد، الخروف بقرش ونصف. نزح الكثيرون باتجاه الحدود الشمالية والشرقية. أمّا الذين لم يتمكنوا من ذلك فقد توجّهوا صوب الجبال وتحصنوا هناك بعيداً عن أعين الدولة. فرغت القرى وبارت الأرض وكثر قطاع الطرق وصارت القوافل تمشي بحذر بالغ.

وزعت الدولة ظلمها بالعدل على الناس. لم يبق أحد لم ينل نصيبه من ذلك العسف اللامحدود: الأرمن، العرب، الكرد، الشركس، اللاز والأرناؤوط. كل شخص في تلك البلاد كان يتعرّض مثل الآخرين لنهب علني.

ازدحم المريدون على أبواب الشيخ محمود، والد الشيخ سعيد، وأيضاً على أبواب باقي شيوخ الطريقة النقشبندية وكذلك ازدحم الناس على أبواب الأعيان والآغوات. كانوا يتضوّرون جوعاً حتى إن بعضهم في جهات قارص وأرزنجان باعوا أطفالهم للتخلص من أعباء نفقاتهم وإعاشتهم.

لكن الشيخ لم يكن يسمع في تلك الليلة الليلاء سوى أصداء أغنية حبّ بريخان. لم يكن يتراءى له في ذلك الظلام سوى ابتسامة بريخان الفردوسية. لم يكن يستشعر في فمه الظامئ وتحت لسانه سوى طعم تلك القبلات الخاطفة.

أصبح وجه بريخان عصفورة وبدأت تنقر تينة خياله الناضجة.

هدأت سورة عطشه قليلاً لكن جلبة رفاقه المعدومين الذين كانوا يحشرجون وهم معلقون مثل الدلاء على صفّ واحد من المشانق المنصوبة زادته عطشاً على عطش.

***

كان ذلك في أحد أيام الصيف. وفي الصيف يصبح العطش سلطاناً يحكم الحلوق كلها.

كان سعيدٌ قد عاد لتوّه من المسجد الذي يصله ببيتهم درب طويل من دروب بلدة بالو. كان عبور ذلك الدرب يصيب المرء بالظمأ لطوله. ظهرت الشمس في ذلك اليوم مثل زرّ ذهبي يلمع على جبّة السماء الزرقاء. كانت تبدو ثابتة في مكانها لا تتزحزح من فرط الحرّ.

ما إن دخل سعيدٌ البيت حتى اتّجه صوب البئر. علت أصوات الخادمات اللواتي كن يعددن طعام المريدين.

شعرت بريخان بقدومه وعرفته من وقع خطواته. كانت بريخان تعرفه من صوت حذائه أو من صوت قفطانه الأطلس أو حتى من ظله الذي كان يتقدّمه.

تهادت بريخان مثل قرنفلة واستقبلته قائلة بغنج:

- خيراً يا مولاي! وجهك ممتقع جداً!

- أنا عطشان يا بري. عطشاااااااااااااااااااااااااااااان.

قال لها بصوت جاف ثم توجّه إلى البئر ووقف على حافتها.

شعر سعيد بقليل من الانتعاش فقد أضفت شتلات النعناع والحبق النامية بسبب انسكاب الماء من الدلاء نوعاً من الرطوبة حول البئر. كان يستطيع أن يسحب الماء وحده من البئر ويرتوي من الماء الزلال لكنه بقي هناك ظامئاً وانتظر. انتظر سعيد أن تأتيه بريخان بقدح زجاجي.

استند بكوعيه إلى حافة البئر وصار يحدّق في صورته المنعكسة في الماء.

كانت تلك البئر التي حفرها أحد مريديهم، بعمق خمسة عشر ذراعاً وكانت مكسوّة من الداخل بالطحالب الخضراء كأنها بطانة من المخمل.

المياه الراكدة أسفل البئر بدت مثل مرآة ناصعة في تلك الظهيرة القائظة. لم ير سعيد فيها سوى وجهه لكنّه لمح فجأة وجهاً إلى جانب وجهه. كانت هي بريخان. سألت:

- إلامَ تحدّق يا مولاي؟

- أبحث عنك يا بريخان. أبحث عنك.

- وهل تظنّني جنّية أسكن قيعان الآبار!

وضحكت قليلاً. سقط قليل من التراب من فوهة البئر إلى القاع فاضطرب الماء وارتجف وجهاهما حتى اتّحدا.

حين مدّت بريخان يدها إلى الحبل لتسحب الدلو من البئر مدّ سعيد يده كذلك وأمسك بيدها فرقصت الغزلان في عيني بريخان وطارت الصقور في عيني سعيد وفاجأها بقبلة على خدّها. مع تلك القبلة الخاطفة التفت الاثنان إلى الوراء. لم يكن ثمّة أحد في باحة الدار. تراجع سعيد بضع خطوات إلى الخلف ثم ولى بريخان ظهره وذهب ليستند إلى شجرة التين ويجلس هناك ليراقب قامتها.

كان الصرير الذي يصدره مرور الحبل في البكرة يشبه صوت الإوز في بحيرة قريبة. صارت بريخان تلتفت إلى الوراء كلما سحبت الدلو بمقدار نصف ذراع ثم تبتسم لسعيد

العطشان. لمعت جديلتاها المنسدلتان من تحت المنديل في ضوء الشمس فنسي سعيد عطشه.

أخيراً خرج الدلو من البئر. كان مليئاً بالماء الرجراج بينما بدت القطرات المنسكبة من الثقوب الصغيرة أسفل الدلو كحبّات لؤلؤ.

سحبت بريخان الدلو الممتلئ إلى حضنها ثم حاولت أن تملأ الكأس الموضوعة على الحافة. كان الدلو ثقيلاً فلم تستطع أن تتحكم به. أسندته إلى الحافة وأمالته فوق الكأس قليلاً.

تذكّر سعيد في تلك اللحظة خضر البوطي وطريقة شربه الماء. تذكّر القطرات التي كانت تنسكب على لحيته نصف المدوّرة، تذكر قرع طاسته بقعر الجرّة وكلماته الشبيهة بكلمات الصوفية:

ـ أرجو أن أموت وسط الماء.

قال خضر ذات مرّة.

وذات شتاء وجده سعيد متجمّداً ميتاً في نهر مراد.

اختلط صوت بقبقة الماء المتدفق من الدلو بخشخشة أوراق التين الأنيسة في ذلك النهار القائظ. وفجأة رأى سعيد أن الدلو وقع في البئر تحت تأثير ثقله. مدّت بريخان يدها اليسرى إلى الحبل لتمنع سقوط الدلو. لكن غلبها الدلو وسحبها معه إلى الأسفل.

وكمن أصابه الفالج راقب المشهد. لم يصدّق عينيه. ظنّ أن ما يحدث أمامه كابوس. حدث كلّ شيء بسرعة. لكنّ صرخة

بريخان أيقظته فركض باتجاه البئر.

- سعيييييييييييييييييييييد.

شقّت هذه الصرخة صخور الصمت في تلك الظهيرة الجهنّمية. تشقّقت جدران قلبه أيضاً. لم يجد نفسه إلّا وهو بجانب البئر ينادي بريخان. كانت الجلبة التي أعقبت سقوط بريخان في البئر دليلاً على أنّها لا تزال حيّة. أسقط في يده. لم يعد يعرف كيف يتصرّف. صعد إلى حافة البئر وصار ينادي طالباً النجدة من المريدين. كاد ينزل إلى البئر بنفسه.

حين جاء المريدون ملبّين نداءه، أمسك أحدهم بذراعه ورجاه قائلاً:

- انزل يا مولاي. انزل.

الخطوة الثالثة

”ثلاث خطوات توصلك إلى اللّٰه.

بخطوة تترك الدنيا، بالأخرى تترك

الآخرة وبالخطوة الثالثة تصل.“

الحلاج

- هيّا اصعد. هذه خطوتك الأخيرة.

أمر الجنديّان التركيّان الشيخَ بصوت واحد. خطا الشيخ خطوته الثالثة، التي سمّاها الجنديان الخطوة الأخيرة، وضع قدمه اليمنى على الكرسيّ المنصوب أسفل حبل المشنقة وقال يا الله. ضغط الجنديّان على ذراعيه بخشونة بالغة وأصعداه على الكرسيّ وكأنّهما لم يأمراه توّاً بالصعود. وضع الشيخ قدمه اليسرى التي كان يؤلمها وجود حصاة في الحذاء بجانب القدم اليمنى وأيقن أنه خطا آخر خطوة في حياته.

شعر بحلقة حبل المشنقة تضرب وجهه. أدرك من الرائحة الكريهة للحبل أنه سُقي أيّاماً عديدة بالزيت. حاول أن يشيح بوجهه لكنّه عرف أن الأمر لا يستحق ذلك العناء.

اتّحد حبل المشنقة وذلك الحبل الذي شدّ بريخان إلى عمق البئر قبل أكثر من خمسين عاماً أمام عينيه في تلك اللحظة.

جال ببصره يبحث عن تلك النجمة التي لمحها قبل قليل من خلال حبل المشنقة فلم يجد سوى سماء مظلمة. كانت عينا

بريخان تلمعان في سماء خياله مثل نجمتين زرقاوين.

سمع الحشرجات التي تصدرها حناجر رفاقه المشنوقين. ثقبت تلك الحشرجات كبده ودقَّت المسامير في جذع روحه. كاد يطلق سؤاله المؤجّل على الله لكنّه رأى أن الحبل ما زال بعيداً عن عنقه وأن أمامه متّسعاً من الوقت ليخاطب ربّه.

كانت المشانق المنصوبة هناك أسئلة بحدّ ذاتها، أسئلة من حبال تُطرح على إله سدَّ بالشمع أذنيه.

- تُرى هل تذكّرتم أيضاً كلّ هذه الأمور حين وصلتم إلى حبل المشنقة؟

سأل رفاقه المشنوقين في سرّه.

***

في تلك الظهيرة، حين هبّ المريدون لنجدته ولبّوا نداءه كان سعيد لا يزال واقفاً على حافة البئر يصرخ كالمجانين بشفتين يابستين:

- إنها لا تزال حيّة، لا تزال حيّة.

أمسك مريدان بذراعيه قائلين:

- انزل يا مولاي. سننزل نحن إلى البئر.

وأنزلاه.

وضع أحد المريدين حاشية ثوبه في فمه ثم نزل إلى البئر وهو يصرخ: "يا شاه نقشبند".

بعد هنيهة وصل إلى قاع البئر فربط بريخان بالحبل وصرخ:

- أسرعوا فإن بها بقيّة رمق.

سحب المريدون المتحلقون حول البئر بريخان فيما كان سعيد يرنو إليهم بقلب يخفق لهفة وترقباً.

وظهرت بريخان.

حين مدّدها المريدون بجانب البئر، فتحت بصعوبة عينيها اللتين سال عليهما الدم وقالت بصوت واهن وهي تنظر إلى سعيد:

- هل شربت الماء يا مولاي.

ثم ماتت.

كان سعيد مبهوتاً ولا يستطيع الكلام. لم يجبها. لم يكن يعرف هل شرب الماء أم لا. كانت الكأس قد وقعت في البئر.

الآن وبعد كلّ هذه السنين عرف أنه لم يشرب الماء يومذاك. صرخ في أعماق خياله:

- أنا عطشان يا بريخان. ما زلت ظامئاً منذ خمسين عاماً. خمسون عاماً وظمأ ذلك اليوم ملتصق بروحي. لقد أصبح الظمأ برّية في فمي لا تستطيع كل مياه الدنيا أن ترويها. تحوّل ذلك الظمأ إلى سؤال من ملح أريد أن أطرحه على ربّي فلا أقدر. لقد شربت الماء من آلاف الينابيع الباردة والسواقي وشربت أيضاً ماء زمزم الذي يأتي به الحجّاج لكن كل تلك المياه لم تكسر سورة عطش ذلك اليوم. ها هو يرافقني حتى

هذه المشنقة وهذا الحبل الذي يشبه حبل البئر في باحة دارنا. لا يمكنني أن أنسى نظرات عينيك الهادئتين قبل الموت ولا يريد العطش الغدّار أن يغادر حلقي.

دأب سعيد على زيارة قبر بريخان كل صباح. صنع حفرتين وملأهما بالماء لتأتي الطيور وتنهل منهما. مساءً كان ينسلّ من البيت ويذهب إلى القبر ليجلس ساعات هناك:

- بدونك سأبقى ظامئاً يا بريخان.

كان يقول ذلك ويمسح بمنديله الأخضر مثل ربيعٍ دموعَه التي تنحدر من عينيه وتتعاقب كما السلاطين.

***

كان تغيير السلاطين قد احتدم ذلك الصيف في إسطنبول. أسقطت فتوى شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي السلطان عبد العزيز والسلطان مراد عن عرشيهما في قصور طوب قابي وبشيكطاش بتهمة الجنون. وحده عطش الشيخ سعيد بقي سلطاناً متربّعاً على عرش روحه إلى الأبد.

- حين تعطش الأرواح فلا سبيل إلى إروائها أبداً.

قال خضر البوطي للشيخ ذات مرّة.

لم يعد سعيد يطيق المكوث في بالو. تحجّج بإنهاء دراسته في ملاذكرد وتوجّه إلى هناك حيث ذاع صيت أحد الأساتذة البارعين في علوم الفرائض. توجّه سعيد إلى مسجده ليتلقى ذلك العلم عنه وبقي عدّة أشهر هناك.

وذات درس سأل سعيد أستاذه:

- أستاذي، ما الذي سيرثه الكرد من آل عثمان لو زالت دولتهم؟

- الدولة ما زالت قائمة. وحين تزول فإن الله كريم.

- لقد قلت "لو" يا سيدي.

- لو زالت هذه الدولة من الوجود فإن الكرد سيرثون المشانق.

- والآن أيضاً ثمّة مشانق تحصد رقاب الكرد يا مولاي!

ضحك الأستاذ، خلع نظارته ومسح دموعه التي طفرت بسبب الضحك. ثم قال:

- ثمّة آباء يوزّعون الميراث وهم على قيد الحياة. وهذه كتلك.

في ملاذكرد، في حجرة ذلك الأستاذ المفوَّه، التقى سعيد ثانية بزميله طالب الفقه رستم. كان رستم ما يزال على مبادئه بل ازداد تحمّساً ودفاعاً عن السلطان. صار يقول لسعيد: "ماذا نريد بعد؟ لقد جاء زمن المشروطية وأنشئ مجلس المبعوثان. هناك من يتحدّث باسمنا في قصر بشيكطاش في إسطنبول. لقد وُضع القانون الأساسي ونحن سواسية أمام ذلك القانون. كلنا عثمانيون يا أخي".

- إن أفندينا وملكنا حضرة السلطان عبد الحميد لا نظير له يا سعيد. صدّقني إنه يعيد سيرة عمر بن الخطاب.

صعّر خدّه ونفخ صدره حين قال ذلك، ثم أخرج من جيبه ورقة صفراء وقال:

- انظر هذه إحدى مواد القانون الأساسي:

"يُعدّ كل فرد من أفراد الدولة العثمانية بطبيعة الحال وبغضّ النظر عن دينه ومذهبه وقومه مواطناً عثمانياً".

ردّ عليه سعيد الموشك على إنهاء دراسته مازحاً:

- يا ملا رستم، لو كان خالص بيننا الآن لما تجرّأت على قراءة هذا البند.

- خالص هذا مارق من الدين يا رجل. حرام أن يكون أصله من بدليس موطن مولانا إدريس المشهور. يا حيف.

- بدليس موطن شرفخان وعبد الخان أيضاً.

- نعم نعم، ومن قال غير ذلك؟ ألا يوجد في كتاب شرفخان مديح السلاطين العظام من آل عثمان. أليس حضرة أفندينا وملكنا السلطان عبد الحميد من أحفاد أولئك السلاطين؟

لم يتبدّل موقف رستم. توجّه مع قوات الشيخ عبيد الله النهري خلال الحرب الروسية العثمانية إلى جبهة بايزيد. هناك كان الضبّاط العثمانيون يسلبون الجنود الكرد جيادهم لكي لا يهربوا من المعارك. أخذوا جواد رستم أيضاً. متأخّراً عرف أنه يشترك في حرب ليست في سبيل الله. لكن إدراكه المتأخر ذاك لم ينجه من رصاصات الجنود الروس.

كان شيخ الإسلام قد أصدر من إسطنبول فتوى الجهاد وألقى كثيرون من مريدي التكيّة الشمزينية بأنفسهم في أتون الحرب.

وبدأ الناس يطلقون على السلطان لقب الغازي. لكن كلّ ذلك لم يجدِ نفعاً. فلا لقب الغازي ولا فتوى الجهاد استطاعا أن يمنعا الهزائم الكبرى عن الجيش العثماني غير المستعدّ للحرب والمنهك. تدفقت الأفواج الروسية إلى الجنوب مثل دببة تبحث عن العسل وصاروا يحتلون المدن مدينة إثر مدينة.

سحب الشيخ عبيد الله يديه من أتون الحرب المستعرة وعاد إلى هكاري بعد أن عرف أن السلطان عبد الحميد لم يقم بالإصلاحات لوجه الله. فلقد حُلّ مجلس المبعوثان بمجرّد انتهاء الحرب وأصبح القانون الأساسي أسير الورق الذي كُتب عليه. بقي الوضع على ما كان عليه وازداد الناس جوعاً، وزاد الآغوات والباشوات نهبهم للناس. هرب الجميع من وطأة الضرائب والمكوس ففرغت القرى من سكانها ولم يعد أحد يهتمّ بزراعة الأرض. وجد الحيدرانيون مع الشيخ عبيد الله في الأوضاع السيّئة فرصة سانحة للانتفاض فجمع الشيخ أعيان الكرد وكبراءهم من كلّ ناحية ليستشيرهم في الخطوات التي عليه أن يقوم بها.

وقف غالبية من دعاهم إليه ضدّ الانتفاض في وجه العثمانيين:

- ديننا ومذهبنا واحد ونحن رعايا هذه الدولة. لن نرفع السيف في وجهها.

هكذا رد عليه رؤساء العشائر والمشايخ والبيكوات.

انطلقت سفينة الثورة في بحر آخر، توجّهت السفينة إلى بحر القاجاريين لكن الرياح عصفت بها وأغرقتها تحت الأمواج.
- لم تثبت جوزته أيضاً على القبّة.
هكذا قال الشيخ سعيد لنفسه وهو يواجه الحبل المسقيّ بالدهن. كان قلبه ينتفض مثل خروف صباح عيد الأضحى إذ ينتفض بين أيدي القصّابين.

***

كان قد بقي يومان لعيد الأضحى. تمعّن الشيخ في المشانق الست والأربعين وتذكر حكاية الكبش والنبي إبراهيم.
كيف سيهنّئ الناس بعضهم بعضاً بعد يومين؟ ماذا سيقولون؟ هل سيعقدون مجالس العزاء؟ هل سيزورون القبور ويقرأون سورة ياسين؟ أم سيتبادلون التهاني بحلول عيد الأضحى؟
بعد يومين، سترتفع التكبيرات من المآذن. لكن هل ستصبغ الفتيات والنساء شعورهنّ بالحنّاء؟ ألن يسأل الأطفال آباءهم وأمهاتهم عن سبب حزنهم في العيد؟
هبط صقر خيال الشيخ حتى دنا من أرانب سنواته التي تقافزت هنا وهناك في برّية عمره واختفت وراء الآجام والأكمات. من ذلك العلو، من فوق ذلك الكرسي وتحت ذلك الحبل المسقيّ بالدهن الذي كان يلامس، وجهه كان صقر خياله يختار السمين من الصيد وينقض عليه.

تذكّر الشيخ ذلك اليوم من عيد الأضحى. كان ذلك ذات خريف بارد حيث ذهب مع ابنه علي رضا إلى بدليس لزيارة بعض خلفائه ومريديه. كانت طبول الحرب الكبرى قد تمزقت ولم يعد يُسمع في الأجواء سوى صدى حشرجات مخنوقة تصدرها حناجر شبعت من البكاء. وكان الملا سليم الخيزاني قد اعتقل قبل سنوات وأعدم بعد أن تحصّن مع رفاقه في القنصلية الروسية. قيل إنّ عمامة الملا سليم سقطت من رأسه وتدحرجت على الأرض لتشكل درباً ثلجيّاً امتدّ من بوابة القنصلية حيث نصبت مشنقته ومشانق رفاقه حتى مسجد شرفخان. على ذلك الدرب الذي شكّلته عمامة الملا سليم سار الجنود الترك جيئة وذهاباً. في ما بعد عرف الشيخ سعيد أن الملا سليم ذاك هو نفسه طالب الفقه الزازي من جوليك ورفيق خالص.

- إنه رجل التزم بكلمته.

قال الشيخ لنفسه.

بعد أن خرج الشيخ من صلاة العيد، التفّ المريدون حوله وصاروا يقبّلون كتفيه، يديه، وحتى حذاءه. تذكّر رفيق أيّامه الدراسية خالص فسأل أحد المريدين:

- أتعرف خالص يا بنيّ؟

- خالص المجنون؟

تعجّب الشيخ لكنه لم يجب. أشار المريد بيده إلى رجل واقف بعيداً وقال:

- ذاك هو يا مولاي. كانت له زوجة أرمنية. قتلت وجنَّ هو بسببها.
سار الشيخ صوبه وقال لجماعة المريدين الذين أحاطوا به كالموج وأرادوا أن يسيروا معه:
- أنتم ابقوا في مكانكم.
كان خالص واقفاً يحدّق في قبّة مسجد قريش، يرتدي سروالاً بوطيّاً من الجوخ المخطّط بالبنّي والأبيض، يلفّ على خصره حزاماً أحمر وعلى رأسه قبّعة مخروطيّة زرقاء لفَّ عليها كوفيّة صفراء. كان مشغولاً برمي الجوز إلى القبّة وفي فمه غليون بنّي طويل لا تبغ فيه. تعجّب الشيخ وقال في نفسه:
أليس هذا خضر البوطي؟
وحين اقترب منه عرفه. كان هو خالص بذاته. لكن من أين له تلك الثياب؟ وحين التقت عينا خالص بالشيخ قال له:
- أتريد أن ترمي واحدة؟
ابتسم الشيخ في وجهه وقال:
- ألم تعرفني يا رجل
- بلى بلى عرفتك. تعال ارمِ أنت أيضاً واحدة. هذه حبّات جوز من جبال شرفدين.
- أنت تعرف يا خالص أنّ الجوزة لا تقف على القباب.
- تقف. إنّها تقف. ومن قال لك لا تقف؟ صحيح أن هذا الموضوع شاقّ لكنّه ممكن إذا مهّدت القباب.
- والقباب لا تُمهَّد.

- بل تُمهَّد. القباب كرات عجين تمهّدها القوة. هييه.

مع صرخة هييه، أخرج خالص جوزة من كيسه وألقاها على القبّة ثم قال بوجه متجهّم:

- أتعرف ما هي القباب؟ إنّها خصى السلطان. أمّا المآذن فهي....

وضع الشيخ يده على فم خالص لكنه تحدّث قائلاً:

- ويدخلونها في...

لم يفسح الشيخ له مجالاً ليكمل جملته بل سأله:

- لكن قل لي من أين لك هذه الثياب؟

- هه ألا تعرف؟ لقد سلبته جوزته وتركته بين الجليد. لم يكن قد مات. وحين جاء الربيع خرج من نهر مراد وعاد إلى موش ليهبني هذه الثياب.

- عمّن تتحدث؟

- أتحدّث عن خضر البوطي يا رجل.

- أكنت تعرفه؟

- أنا هو يا شيييييخ. أنا خضر البوطي.

حوقل الشيخ ثم قفل راجعاً إلى مريديه فتبعه خالص ووضع حبّة جوز في كفّ الشيخ وقال له بصوت يشبه ذرو البيادر بالمذراة:

- سعيد. ألم يكن حبّ بريخان قبّة من القباب ألقيت عليها جوزة قلبك!

***

كانت مذراة خياله تذرّي بيدر أعوامه السبعين على أنغام ريح الموت الذي بدأ يقترب أكثر. شكّ الشيخ في حقيقة ما يتخيّله في تلك اللحظة من حوادث تظهر كأنها أحلام تطير في سماوات خياله. إنّها تطير وتطير دون أن تحط على أيّ غصن من أيّ شجرة. شك في أنه يتخيّل حياة لم يعشها وصار يسأل نفسه: ترى هل خضر البوطي ورستم الملاذكردي وخالص البدليسي وسليم الخيزاني وكل هذه الأماكن وهؤلاء الأشخاص من الذين نصبوا خيامهم في برّية خياله لم يكونوا سوى سراب؟ وبريخان؟ بريخان التي أضاءت قلبه مثل شعلة متّقدة؟ أهي أيضاً ضرب من الخيال؟

- خيط لامرئي وواهٍ يخيط الخيال بالحقيقة.

رنّت في أذنيه هذه الكلمات التي ردّدها ذات يوم أحد شيوخ النقشبنيدية كالنواقيس.

لاحت له سنوات عمره مثل جبال ملفعة بالضباب.

وفجأة سكتت النواقيس.

- صدر أمر بإبادة الأرمن.

ردّد الكثيرون هذه الجملة بفرح. هاجموا قرى الأرمن ونهبوهم وقتلوهم. كادت الألوية الحميدية تبيد الأرمن مثل نار تغزو هشيماً.

في مدارس العشائر في إسطنبول، كان أبناء رؤساء العشائر يتلقّون دروساً في الحقد وإبادة الأرمن. الشيوخ وملالي الترك نبتوا في مناطق الكرد كالشوك. قضوا سنوات وهم يؤلبون الطلبة الكرد على الأرمن ويربّونهم على الحقد. بدأت ألفباء الحقد بكلمة الأرمن.

ـ ألف: الأرمن كفّار.

والسكاكين التي شُحذت لقتل أولئك الكفّار، كانت على الأغلب كرديّة.

في أيّام السفربرلك أيضاً وبعدما تسلّم الاتحاد والترقّي زمام الحكم، استمرّت الإبادة على نحو أفظع. لم يعد الناس يسمعون صوت النواقيس ولا صوت ضحكات عذارى الأرمن اللواتي كان خالص البدليسي يترصّدهنّ في موش وبدليس. تبدّلت تلك الأصوات ببكاء الأطفال اليتامى على الطرقات المنقوشة بالجثث المنتفخة.

ـ لا تقتلوا النساء والأطفال والشيوخ. الشرع لا يجيز ذلك.

كانت هذه الفتوى من الشيخ سعيد مع فتاوى مماثلة من شيوخ آخرين مثل نسيم عليل هبّ في ذلك الجحيم. أرسل الشيخ رسالة إلى مفتي منطقة "ليجه" دعاه فيها إلى حماية أطفال الأرمن ونسائهم والحرص على سلامتهم:

ـ إن دعا الأمر إلى القتال دفاعاً عنهم فقاتلوا. إن قتلهم جريمة. لا يمكن قبول ذلك.

لكن الحقد الذي زُرع في الرؤوس كان أكبر من تلك الرسالة وتلك التوصيات.

كان الكرد الذين يؤوون الأرمن يتعرّضون لمصاعب شتّى. حتى إن الدولة صارت تعتبرهم أيضاً من الأرمن. صار إخفاء شخص أرمني شجاعة كبرى.

امتلأ بيت الشيخ سعيد بنساء وأطفال وبنات من الأرمن. لجأ أولئك الأرمن إلى ظلال جبته المقدسة وصاروا ينظرون بعيون عشّش فيها الخوف إلى عينيه الإلهيتين.

من بين الفتيات الكثيرات اللواتي عجّ بهنّ منزل الشيخ سعيد، كانت ثمّة فتاة حديثة السنّ جميلة ذات وجه أصهب وذقن مدبّب وعينين عسليّتين. كانت ثيابها تدلّ على أنها من مدينة وان. سألها الشيخ:

- ما اسمك يا ابنتي؟

- أنا هاميست يا سيدي. أنا ابنة أنترانيك.

رنّ اسم أنترانيك مثل ناقوس على مسامع الشيخ. رأى في عينيها بحيرة من الدم فسألها:

- أنترانيك ابن وانيس بوغوصيان الأرضرومي؟

بكت هاميست حين سمعت الشيخ يلفظ اسم أبيها وجدّها. انحنت تقبّل قدميه وتبلّل حذاءه بدموعها ثم قالت:

- أجل يا مولاي الشيخ. أنترانيك أبي. ساقته الدولة إلى جبهة القتال في ساري قاميش. ولا أعلم إن كان ميتاً أم لا يزال على قيد الحياة. لم يبق من عائلتنا سواي.

- أتريدين أن تعتنقي الإسلام أم نرسلك إلى "ليجه"؟
- ليجه؟
- نعم يا بنيّتي. إن المفتي هناك صديقي. ستبقين عنده إلى أن يفتح الله باباً للفرج في وجوهنا ووجوهكم.
مسحت هاميست دموعها الساخنة وقالت وهي تجهش:
- فلأكن جاريتك أيها الشيخ. أرسلني إلى ليجه.
كانت البيوتات الكردية الكبيرة ترسل غالبية الأرمن الذين يلجأون إليها باتّجاه الموصل وحلب. جهّز الشيخ سعيد أيضاً قافلة من الأرمن الموجودين في بيته ليرسلها إلى دياربكر وقال لمريديه:
- أوصلوا هؤلاء إلى ليجه بسلامة ومن هناك ليأخذهم آخرون إلى أيّ مكان لا تطاله أيدي نسل الذئاب هؤلاء.
وفي ليلة ليلاء لا قمر فيها، من ذلك الربيع الحزين، ساق المريدون قافلة البؤساء تلك صوب الجنوب.
كانت هيبة الشيخ وسمعة تكيته قد جابت الآفاق حتى صار الهاربون من الجيش أيضاً يسعون إليها ومن هناك يتوجّهون إلى أقدارهم.
وحين انهزم أنور باشا ذات شتاء في معركة ساري قاميش هرب مئات الجنود في كلّ اتّجاه صوب قارص وموش وأرضروم ووان وجولك وبدليس وديرسم وغيرها. كانوا جرحى يرتدون أسمالاً بالية ويتضوّرون جوعاً تبدو أضلاعهم من شدّة الهزال، وتظهر عيونهم غائرة في محاجرها.

ولقد بات الجندي الذي يقايض بندقيته برغيف من الخبز يعتبر أنّه ملك الدنيا كلها فيتقافز كالمجانين ويعوي كالذئاب. الأرمن الذين ساروا مع الجيش الروسي الذي كان يهاجم المدن والقرى الكردية شنّوا حملة إبادة ضد الكرد. كان الحقد الذي زرعه في القلوب السلطان عبد الحميد ومن بعده جماعة الاتحاد والترقّي قد نبت ونما وأعمى الناس.

من بين أولئك الجنود الفارّين، وصل ذات شتاء شابّان من أرضروم إلى بيت الشيخ. كانا هاربين من ساري قاميش بعد هزيمة الجيش العثماني بقيادة أنور باشا. أحدهما يونس الآميدي والثاني رمو الدياربكري. بعد يومين من تناول الخبز الساخن والتحمّم وتبديل الملابس، استعادا عافيتهما. وجّههما الشيخ إلى مدينة دياربكر وقال لهما:

ـ كان الله معكما. لا أستطيع إيواءكما لديّ أكثر من هذا. أنتما فراريان فانتبها لنفسيكما.

ثم منح كل واحد منهما كيساً فيه زوّادة وخبز ونفحهما بعض المجيديات فانطلقا إلى دياربكر.

حين احتدم القتال وحمي وطيس الحرب أغار الجيش الروسي والميليشيات الأرمنية المرافقة له مثل كسف الثلج من الشمال فدمّروا كل شيء في طريقهم. كان أفراد الميليشيات الأرمنية الذين أعمى الحقد قلوبهم فلم يعودوا يصغون إلا لنداء الانتقام يقتلون الناس بلا رحمة. كانوا يجمعون الناس في المساجد ثم يعرونهم ويقولون:

- هيا. النساء في الصفوف الأمامية والرجال في الخلف. صلوا. هيا أقيموا الصلاة.

حين رأى الشيخ انعدام الأمان في المنطقة، جمع عائلته الكبيرة وكتبه وقطعان غنمه وساقها باتّجاه بيران. كان اثنان من إخوته قد استقرّا قبل السفربرلك هناك. ذهب الشيخ إلى أخويه في بيران. وحين حلّ ضيفاً ذات مرّة على مفتي ليجه سأله عن هاميست. ضحك المفتي وقال:

- لقد تزوّجت. كانت في دياربكر تعمل خادمة في أحد البيوت. هناك تعرّفت إلى شاب فارّ من الجيش أصله من بهدينان وتزوّجته. هكذا روى لي مراكبيٌ من ليجه أوصلهما بمركبه إلى الطرف الآخر.

تنفس الشيخ الصعداء وانفرجت أسارير وجهه. أطلق المفتي ضحكة خافتة وسأل:

- لماذا سألت من بين الجميع عن هاميست يا جناب الشيخ؟

- إنها حفيدة أحد أصدقائي من أرضروم. أنا مدين له بهذا المشط وهذا الخاتم الفضّي.

وأخرج مشطه البنّي من جيبه ثمّ مدّ يده التي يزيّن إحدى أصابعها خاتم فضّي بفصّ فيروزي فقال:

- قدر. كم ثمن هذا الخاتم؟

- يا مولاي إن كان الخاتم في إصبعك فهو يساوي بلاداً بأكملها. لكنه خارج إصبعك يساوي بحدود أربع إلى خمس مجيديات.

***

بحث الشيخ سعيد، الذي لم يكن قد تذكّر خاتمه إلى تلك اللحظة، عن الخاتم في إحدى أصابع يديه المقيّدتين من الخلف فلم يجد له أثراً. ثم تذكر أن عديله قاسم بيك سلبه الخاتم أيضاً حين أُسر عند الجسر وقال له:

- أعطني الخاتم فهو ضيّق على إصبعك. سيؤلمك.

تأرجحت الأجساد المتدلية الستة والأربعون من المشانق أمام عيني الشيخ مثل حقائب يحملها الدراويش على أكتافهم. نظر من خلال حلقة حبل المشنقة الذي كان يلامس وجهه بخشونة بالغة إلى تلك الأجساد التي كانت قبل قليل رجالاً صلاباً يصرخون من أجل الحرّية وينشدون الأشعار. جال ببصره في سماء دياربكر فرآها كالرماد الذي يتركه البدو في مواقدهم حين يرحلون، أوشك أن يطرح سؤاله المؤجّل على الله وينفخ في ذلك الرماد البارد لعلَّه يشعل من بينه جمرة ويوقدها لكنه قال في قرارة نفسه إن الوقت لم يحن بعد.

- إن الليل رماد الزمن. وإن الأسئلة تنضج فتنفجر أمام عرش الله النوراني كلما تأخر الوقت أكثر.

هكذا قال شاه نقشبند.

وضع الكرد آلامهم، آمالهم، وأحلامهم في جراب ممزق، حملوه على أكتافهم وطرقوا أبواب باريس ولندن وواشنطن، تلك العواصم التي تتمدّد أقدار الشعوب على طاولاتها.

في كل مكان وقف الكرد أمام القباب ورموا فوقها حبّات الجوز.
- لو رموا جميعاً ما لديهم على قبّة واحدة لغمروها بالجوز.
كرّر الشيخ جملة خالص البدليسي تلك في أذن ليل دياربكر الرمادي وسحب رأسه إلى الخلف قليلاً ليتفادى الحبل.
لاحق الحبل المسقيّ بالدهن وجهه. رأى الشيخ أنه لو سحب رأسه قليلاً إلى الوراء لسقط من الكرسيّ على ظهره. نظر ثانية إلى تلك السماء الخرساء وقال:
- يا إلهي.
وانغرز محراث العطش في برّية حلقه الجافّ.

***

الثور العثماني العجوز الذي بيع جلده في أسواق ما بعد الحرب الكبرى، لم يعد يستطيع الحراثة بالمحراث الصدئ ويفلح أحلام إمبراطورية مهزومة. نظر سلطان إسطنبول وحيد الدين خان من خلف زجاج نظارته في قصر يلدز إلى الزبد الذي يعلو أمواج بحر مرمرة، ثمّ مسّد بإصبعي السبّابة والإبهام من يده اليُمنى طرفي شاربيه وقال في قرارة نفسه:
- سيعيد لي مصطفى باشا عرش آبائي وأجدادي. وسيظلّل شارباي كما في سالف الأوان المنطقة من قارص حتى الحجاز والمغرب وحتى البوسنة.
ثم رمى بكل ثقله على فراش محشوّ بريش القطا والحجل.

كان الجميع يحملون في أيديهم فخاخاً ويلقون السلام على الآخرين. كل واحد يلقي الشباك أمام قدمي الآخر. كان كلّ واحد يريد أن يغسل أحلامه بالدم.

ذات يوم جاء أحد خلفاء الشيخ سعيد إلى زيارته وأخرج متوجلاً جريدة كانت تحت إبطه. نشرها أمام الشيخ كأنه ينشر خريطة كنز وقال بصوت مرتجف:

- مولاي انظر ماذا نشرت هذه الجريدة!

- هل هذه جريدة بيام صباح الإسطنبولية؟

- أجل يا مولاي.

تناول الشيخ الجريدة وقرأ قليلاً منها. كان المقال يتحدّث عن بوغوص نوبار باشا الأرمني وشريف باشا الكردي. كان الاثنان قد اجتمعا في باريس وعقدا العزم على إصدار مذكرة مشتركة لتقديمها إلى مؤتمر باريس. وبدون أن يضع الجريدة من يده قال الشيخ:

- وممّ تخاف؟ فليتفقا. أليس ذلك أفضل من أن تبدأ من جديد مقتلة أخرى؟

- ألم نتخلص منهم يا مولاي؟ لماذا يرتبط مصيرنا بمصيرهم؟

- إن لم يقبل بنا الترك في هذه البلاد، التي هي بلادنا، فسنربط مصيرنا بمصير الجنّ أيضاً.

قال الشيخ ذلك ورمى الجريدة في النار التي كانت تلهب الموقد أمامه. تجعّدت الورقة وهي تحترق وظهرت الأحرف

العربيّة الناعمة التي طبعت بها مذكرة بوغوص الأرمني وشريف الكردي بيضاء لامعة يمكن للمرء قراءتها حتى بين ألسنة اللهب. بقي الشيخ برهة دون أن يتكلم ثمّ مدّ يده إلى كتاب بجانب سجّادته، فتحه وقال:

- اقرأ هذا يا رجل. اقرأ هذا الكتاب، لا هذه الجرائد التي تقول كل واحدة منها شيئاً مختلفاً عمّا تقوله الأخرى. هذا هو كتاب الشيخ أحمد خاني وهو معي منذ خمسين عاماً. اسمع ما يقوله.

وقرأ بصوت عال بعض أبيات مقدّمة **مَم وزين** ثم تنهّد بعمق وأطلق آهة قويّة جعلت النار التي شرعت تأكل سطور المقال تزداد أواراً.

كان ذلك ذات شتاء قارس البرد.

كانت الشعوب التي منحتها الدول الكبرى غلايين يدخنون منها الأمل تذهب لتطرق باب عصبة الأمم وتطالب بحصتها من التبغ من عواصم صنعت ذلك الباب. أما الكرد فكان كل زعيم يجد نفسه أحق بالغليون. لم يكن أحد مستعداً ليمنح الآخر نفساً منه. لم يستطع الكرد الاتفاق الذي طالب به الخاني في كتابه. بل كان كل واحد يسحب البساط من تحت رجل الآخر ليجلس هو فقط عليه.

كانت خلافات الكرد تحيّر مندوبي الدول العظمى. لم يعرف أولئك المندوبون من هو الممثل الحقيقي للكرد. لم يعرفوا مع

من يجب أن يتفقوا ومن هو صاحب القضيّة. الجميع كانوا يقولون إنهم يمثلون ذلك الشعب المسكين.

- حين تكثر الأيادي تحترق الطبخة.

قال الشيخ في خياله المحترق وتذكّر الرسائل التي بعثها إلى رؤساء العشائر والآغوات والبيكوات والشيوخ والملالي الكرد قبل عدّة أشهر. قام كثير من الكرد ضده لمصلحة أنقرة. وحين كان المسلحون من مناوئيه يقعون في الأسر، كان يطلق سراحهم ويرسل معهم رسائل لقادتهم يقول لهم فيها:

- إن كنتم لا تستطيعون أن تناصروني فلا تقاتلوني على الأقل.

ثم يضع أسفل الرسالة إمضاءه الشبيه بنهر في برّية مغطاة بالثلج: أمير المجاهدين سعيد النقشبندي.

لم تنفع تلك المناشدات كما لا ينفع الثورَ عزفٌ أمام أذنيه. كانت رسائله تحترق قبل أن يقرأها المرسَلون إليهم وتتحوّل إلى رماد تذروه الريح. كان الذهب القادم من أنقرة والذي ملأ جيوب أولئك المتنفذين هو الرسائل الوحيدة التي يقرأونها بسلاسة.

تحوّل خيال الشيخ إلى مزهرية من الخزف مملوءة بالرمل. كانت الحجارة تأتيها من كلّ حدب وصوب. تكسّرت تلك المزهريّة الخزفيّة أمام وابل الحجارة. سال الرمل المتراكم فيها وتحوّل إلى برّية مترامية جثمت فوق روحه.

مزهرية سيفر

هطل رذاذ ناعم من سماء شهر آب في يوم الثلاثاء ذاك. خرج عمّال مصنع الخزفيات في مدينة سيفر القريبة من باريس إلى الاستراحة وصاروا يدخنون لفافات التبغ تحت ذلك الرذاذ الذي يشبه أنامل الحوريات في الطراوة والنعومة. شمالاً كان نهر السين يعكس الأشجار النامية على ضفتيه فيبدو أخضر لامعاً. كان نهراً ناعساً يجري بهدوء.

الناس الذين لم يهتمّوا لأمر ذلك الرذاذ الناعم كانوا يتمشون على الضفتين. كان بعضهم يتنزّهون مع كلابهم. أمّا العشاق فقد كانوا يتبادلون خلف الأشجار قبلاً أسخن من النيران المتقدة في أتون معمل الخزفيات. وكان آخرون يتفرّجون بسعادة وهم في قواربهم على أشعّة الشمس التي كانت تظهر بين هنيهة وأخرى من خلف الغيوم مثل صحن ذهبي.

ولقد ذاع صيت الأواني الخزفية التي كانت معامل سيفر تصنعها في أوروبا كلها منذ مئتي عام. وبلغت تلك الخزفيات شهرة كبيرة لدرجة أنه إن أراد تاجر أن يروّج لبضاعته من الخزف لقال: "إنها بضاعة سيفرية. المسوها. صقيلة وناعمة مثل نهدي عذراء".

ومنذ عهد لويس الخامس عشر، زير النساء، كان ملوك أوروبا وأمراؤها يحصلون في كل زيارة لهم للبلاط الباريسي

على أوانٍ خزفيّة مثل الأطباق والصحون والكؤوس والمزهريات والسكّريات والممالح ومنافض السجائر وأقداح الشراب وفناجين القهوة وأباريق الشاي أيضاً.
ذلك اليوم الصيفي الطويل، لم يكن يعرف عمّال معمل الخزفيات الذين التقى دخان سجائرهم بدخان المعمل أنه على بعد ربع ساعة مشي منهم تُصنع مزهريات كبيرة مثل أحلام شعوب تقتات على الأمل. لم يكن أولئك العمال يعلمون أن الكبار يجتمعون في قاعة كبيرة قديمة في قصر من قصور تلك البلدة يحملون أقدار الشعوب كمغازل في أيديهم، يفتلونها ثم ينسجون من الدم والحبر أحلاماً ويمحون بريشاتهم الذهبية دولاً لينشئوا بها دولاً أخرى على الورق.
في تلك البلدة على ضفة السين، بعيداً عن نهر دجلة، صنعوا للكرد أيضاً مزهرية خزفية. مزهرية بنقوش أوروبية رسمتها أصابع فنّاني السياسات الضبابية موقّعة بإمضاء الداماد فريد باشا، ممثل إمبراطورية تعاني سكرات الموت.
كلّ آغا كردي جمع حوله عدداً من الخدم، كلّ نجيب من نسل أمير يعرف بضعة أوروبيين، كلّ شيخ التف حوله عدد من المريدين وكلّ ضابط من الألوية الحميدية تبعه نفر من الجنود يحملون بنادق مارتين ومجر، كان يريد الاستحواذ على تلك المزهرية. هيّأ الجميع طاولات خيالهم ليضعوا عليها مزهريّة سيفر تلك. كلّ واحد كان يسقي وردة أحلامه بحكم الأكراد ليضعها أخيراً في تلك المزهريّة.

كان قد بقي لعيد الأضحى أيّام قلائل. اتفاقية سيفر نثرت رائحة دولة كردية شمّها الجميع. لكنّ أنقرة كانت أقرب من سيفر.

خلال أيّام العيد، طفق الملالي والشيوخ الذين سال ذهب أنقرة إلى جيوبهم يتحدّثون في خطبهم عن خيانة فريد باشا والأرمن والكرد الذين سعوا لترى تلك الاتفاقية النورَ.

- إنهم كفّار يريدون إزالة حكم الخلافة الإسلامية.
- هم عملاء الإنكليز ويسعون إلى إبادة الكرد والترك.
- إنهم بتلك الاتفاقية يساعدون الجيش اليوناني.

البيكوات والآغوات الذين كانوا يميلون إلى أنقرة تحدثوا في مجالسهم عن خيانة مَن وقّع الاتفاقية وصاروا يخوّفون الناس من عودة الأرمن:

- هذه الاتفاقية ضد الكرد قبل أن تكون ضد الترك. سيوزّعون بلادنا على الأرمن لنصبح عبيداً لهم. ستخرج بدليس، وان وأرضروم من أيدينا أيها الإخوة.

لم يستطع المثقفون والشيوخ الكرد الواعون مقاومة موجة العداء للاتفاقية. بل على العكس كان الذين يعادون تلك الاتفاقية من بين الكرد يؤلبون الناس ويرسلونهم إلى جبهات القتال في الغرب.

مزهرية سيفر التي وضعها مندوبو الدول العظمي على طاولة خيال الكرد بقيت دون أزهار.

أخذ الكرد نرجس الحرّية التي تفتحت في أحلامهم ليضعوها في تلك المزهرية.
- يذبل النرجس إذا بقي يومين بلا ماء.
هكذا قال الخيال الظامئ للخيال الظامئ.

***

كان صيف ذلك العام حارّاً. ذبلت فيه كل أزهار النرجس. لكنّ الرجل الشاب ذا التسعة والثلاثين عاماً والقادم من بلدة كمكم[13] خالد الجبرانلي الذي تخرج من مدارس العشائر في إسطنبول، وابن محمود بيك رئيس عشيرة الجبرانلي والقائد في الألوية الحميدية سابقاً، كان يشمّ رائحة دولة كردية فلم تذبل النرجسة المتفتحة في خياله قطّ.

Gimgim 13

- إنني أشم رائحة دولة أكثر ممّا أشمّ رائحة نرجسة في مزهرية.
هكذا كان يقول لرفيق دربه الشاعر والمثقف يوسف ضياء بيك من بدليس.
أدرك الاثنان أن مغازل القدر صارت في أيدي الدول العظمى. عرفا أن قلم التاريخ في يد الإنكليز والفرنسيين يخطّون به ما يشاؤون على القراطيس الممتدة من نهر قيزيل إيرماق إلى بحيرة وان.
- الاستقلال.

أمال يوسف ضياء قبّعته مردّداً تلك الجملة وأضاف:
- هو دواؤنا. وحان الآن دورنا لنجعل بلادنا ساحة تتسابق فيها خيول الحرّية.
اتّصل كلاهما في ذلك الصيف بسيد عبد القادر ابن الشيخ عبيد الله النهري عضو جمعية تعالي كردستان في إسطنبول.
ثم تواصلا مع كلّ من تفوح من قلبه رائحة النار. تواصلا مع كلّ كردي نصب التاريخ أمام قدميه العمياوين فخاخه.
لم يعلما أن التاريخ بدأ ينسج بساطه على نول أنقرة وأن المغزل الذي كانت إسطنبول تغزل به قدر الشعوب اهترأ الآن وأكله الدود. تحوّلت إسطنبول إلى عجوز تجلس على كفنها.
في قوجكيري وديرسم رمى الكرد من جديد جوزتهم على قبّة أحلامهم في الحرّية. سرعان ما تدحرجت تلك الجوزة أيضاً وتحطمت.
كانت أنقرة تعدل في جلستها أمام النول وتنسج بساط التاريخ كما يحلو لها. حزب الطاشناق الأرمني الذي أراد في خريف ذلك العام تحقيق بنود اتفاقية سيفر بالبندقية تعرّض لهزيمة كبيرة في حربه مع القوات الحكومية التابعة لأنقرة في جبهة الشرق. وضعت موسكو البلشفية يدها في يد أنقرة ووقّع الطرفان معاهدة صداقة. ترك الجيش اليوناني في جبهة الغرب بالقرب من نهر ساقاريا سلاحه وقتلاه خلفه ولاذ بالفرار. الفرنسيون الذين كانوا في الجنوب وقّعوا بدون علم الإنكليز اتفاقية مع أنقرة وسحبوا قوّاتهم من أنطاكية.

الإيطاليون أيضاً تركوا مدينة أنطاليا. لم تبق في تركيا سوى حكومة واحدة وأصبح السلطان قطعة قديمة في متحف التاريخ.

أصبحت تركيا جمهورية، تحوّلت إلى حصاة ضربت تلك المزهرية الموضوعة مثل حمامة بيضاء على طاولة خيال الكرد.

اضطرّت لندن أيضاً لأن ترمي حصاة من جانبها على تلك المزهرية التي تشققت ولم يبق سوى ضربة واحدة لتتحوّل إلى قطع صغيرة وتتحطم.

حجر لوزان

سُمع صوت ارتطام حجر بشيء ما. نظر الجنديان الواقفان بجانب الكرسيّ الذي يقف عليه الشيخ إلى الوراء بخوف. لم يكن هناك شيء يتحرّك. لكنهما وضعا إصبعيهما على الزناد وأصاخا السمع. ابتسم الشيخ ونظر إلى وجهي الجنديين وقال بصوت سمعه هو فقط:

- إنه حجر لوزان. الحجر الذي هشّم مزهرية سيفر.

تذكّر الشيخ تلك الحجارة الصغيرة التي كان يلصقها هو ورفاق الطفولة على جدران المزارات. تذكّر حجارة حَفتوك[14]، تذكّر الأحجار التي كانوا يضعون بعضها فوق بعض ثم يرمونها بكرة من قماش ملفوف، تذكّر حجارة الختمة[15] حين كان يجتمع مع المصلين بعد صلاة العصر فتوزع عليهم حجارة صغيرة ليذكروا الله ويسبحوا بعددها. تذكّر أيضاً حجارة المقاليع التي كان يرمي بها الطيور والعصافير.

14 لعبة يلعبها الصغار عمادها خمسة أحجار صغيرة.

15 الختمة نوع من الذكر لدى أتباع الطريقة النقشبندية.

لكن أكثر ما تذكّره الشيخ لحظتها كان تلك الحجارة التي رماها مراراً في صغره إلى مياه النهر. كان يأتي هو ورفاقه بحجارة صقيلة مسطحة ويرمونها في النهر. كان الحجر يعلو

قليلاً في الهواء ثم يلامس سطح الماء مرات عديدة قبل أن تهدأ حركته ويغوص في الأعماق ويخلّف وراءه دوائر صغير تتّسع رويداً رويداً ثم تتلاشى.

كان الأطفال يصرخون بفرح:

- الحجر يلثم الماء.

كان الأطفال يعدّدون قبلات حجارتهم الطائرة للماء ويتفاخرون بها.

مثل مقلاع رمى حبلُ المشنقة الذي يلامس وجه الشيخ حجرَ خياله صوب نهر سنواته التي كانت تمضي إلى نهايتها. قبّل الحجر وجه النهر عدّة مرّات. ضعفت حركته بعد ذلك وتناقصت. كان حجر العمر يهوي رويداً رويداً إلى الأعماق.

***

حدث ذلك ذات صيف مرة أخرى. يوم عيد الأضحى قبل سنتين. في مدينة لوزان قريباً من بحيرة ليمان السويسرية. لم تكن الثلوج قد ذابت بعد. كانت تبدو مثل جثث في الأكفان على ذرى الجبال شمالي المدينة. هناك كان الناس يتزلجون بمتعة وسعادة على الثلوج دون أن يعرفوا أن آمال الشعوب تذوب في الغرف المغلقة على وقع أنفاس الذين يجتمعون هناك وفي أيديهم الخرائط. لم يعرفوا أنهم يدفنون معاهدة سيفر هناك.

كان الكرد في ذلك الصباح قد بدأوا ينحرون الأضاحي ويولمون الولائم ويوزعون اللحم ويباركون العيد بعضهم

لبعض دون أن يعرفوا أن أنقرة تضحّي بأحلامهم في مدينة بعيدة وتنحر أمانيّهم الكثيرة.

وضع عصمت باشا، مندوب حكومة أنقرة، يده على أذنه ليصغي إلى حديث اللورد كورزون الإنكليزي الخافت. فتح اللورد الذي فاحت رائحة الفيلة الهندية منه علبة التبغ العاجيّة، مدّها نحو عصمت باشا وقال له:

- دخّن. دخّن وأطلق سحابة من الدخان علينا وعلى خلافاتنا.

ابتسم عصمت باشا. أخرج المنديل الأبيض من جيب الجاكيت السموكن، مسح عرقه ثم مسّد شاربيه وقال:

- ها نحن أطلقنا دخاناً على السلطان أيضاً. إنه الآن مجرّد خليفة يقضي وقته في جناح الحريم. ليس سوى مسؤول الجواري. سننهي الخلافة أيضاً وسنجعل تركيا جمهورية. ما الذي تريدونه بعد؟

- الموصل.

- الموصل!! إن لم أضع الموصل في جيبي فلن أعود إلى أنقرة.

- لا. ستبقى الموصل في جيبنا. فلتحلم بشيء آخر يا عصمت باشا. إن مزهرية سيفر أغلى من الموصل.

وأخرج من جيبه حجراً ورماه على مزهرية تتوسّط الطاولة محاطة بدخان السجائر كأنها حورية. ضحك عصمت باشا. حمل كأس الماء البارد من أمامه وشرب جرعة. ثم أخرج هو

أيضاً حجراً من جيبه، رمى ذلك الحجر على مزهرية سيفر نصف المكسورة.

تطايرت شظايا تلك المزهرية وخرجت من نافذة القاعة حتى وصلت إلى بحيرة ليمان. لثمت بعض الشظايا سطح البحيرة عدّة مرّات ثمّ غاصت إلى أعماقها.

غرقت مزهريّة الأحلام في بحيرة ليمان قريباً من مدينة لوزان.

ودون أن يضع عصمت باشا الموصل في جيبه عاد إلى أنقرة. لكنه عاد بشيء أغلى وأكبر. عاد بشيء ملأ كل جيوبه: عاد وفي يده قدر الكرد.

حين تنفد الخطوات

"مشيناها خطىً كُتبت علينا

ومن كتبت عليه خطىً مشاها."

الشاعر الدريني

مشى أحد الجنديين صوب الشيخ، أخرج يديه من جيبه ليضع رقبته في حلقة حبل المشنقة. كاد الشيخ يقول لهما: بأيّ قانون تضعون حلقاً ظامئاً في الحبل؟ لكنه أنف ذلك وترفع عنه.

- سآخذ عطشي معي إلى الله.

لم يحن رأسه بل تراجع برأسه قليلاً إلى الخلف. تذكّر نصيحته التي أسداها للشيخ علي الجاني فتنحّى عن الحبل.

- حتى الخروف يقاوم حين يساق إلى الذبح. فلماذا لا أقاوم أنا؟

جاء الجندي الآخر، وكانت يداه ما تزالان في جيبه ووقف بجانب الشيخ ثم قال بالتركية:

- لا تخف يا شيخ أفندي لا تخف. إنه على مقاسك تماماً.

ثمّ مدّ يده إلى الحبل.

جاء الجنود وعناصر الجندرمة الذين أنجزوا مهامّهم في المشانق الأخرى ووقفوا بجانب المشنقة المنصوبة للشيخ سعيد ليروا كيف يمكن لحبل أن يكون أسرع من الماء في إطفاء عطش رجل عجوز.

غضب الشيخ من كلام الجندي. هو لم يكن يخاف. كانت عصفورة الخوف قد طارت عن أغصان قاموس خياله في تلك الليلة.

- يا إلهي.

مرة أخرى توجّه الشيخ إلى تلك السماء التي بدت مثل جزمة سوداء تطأ مدينة دياربكر من الأعالي. ريَّش سؤاله مثل سهم في قوس خياله لكنّه لم يرم به.

ابتسم ثم ضحك. ولكي يعرف الجنود المحيطون به أنه لا يهاب الموت رفع صوت ضحكته.

ثمّ قاوم من جديد محاولات وضع رقبته في المشنقة. صرخ أحد الضبّاط في الجنديين قائلاً:

- هيّا أمسكا بذراعه.

ودون أن ينزعوا عنه العمامة، التي لفّها لنفسه في قرية قول حصار من بلدة خنوس، وضعوا رأسه بالإكراه في حلقة ذلك الحبل الذي جدلوه في لوزان.

العمامة التي كانت أكبر من حلقة الحبل، العمامة ذات العشرين ذراعاً التي لفّها الشيخ ستاً وأربعين لفة، العمامة النفيسة من الكتّان المصري التي لم يرفعها عن رأسه طوال أيّام القتال السبعين وأيّام السجن الخمسة والسبعين في مدينة دياربكر، سقطت عن رأسه وتدحرجت. تدحرجت العمامة من عند جزمات الضباط والجنود نحو الأسفل مثل ساقية من حليب.

رأى الضابط أن الشيخ يتبعها بنظراته فقال بصوت حادّ:
- يا شيخ أفندي. لا تقلق عليها. إنها بضعة أذرع من الكتّان الأبيض ولن تنفعك بعد الآن.
لم يسمع الشيخ كلام الضابط. تدحرج بخياله مع عمامته من ذلك العلو وانحدر إلى سهول السنوات من عمره الفائت.

***

أواخر الصيف قبل سنتين. جلس الشيخ في حجرته بقرية قول حصار من بلدة خنوس يلفّ عمامته النفيسة من الكتّان. تذكّر نصيحة أبيه وكلامه حين وضع لأوّل مرّة عمامة بيضاء على رأسه:
- العمامة تاج العالم يا ولدي. عليك أن تبسمل كلّ مرّة حين تريد أن تضعها على رأسك. لا فرق إن كانت العمامة كبيرة أو صغيرة. المهمّ هو أن يكون العقل كبيراً.
نظر الشيخ بحزن إلى كأس الماء التي أمامه وهو يستذكر تلك الكلمات. تذكّر يوم سقطت بريخان في البئر. تذكّر تلك الكأس التي كانت على حافة البئر، الكأس التي لم يشرب ماءها. تناهى إلى سمع خياله صدى طاسة خضر البوطي في قعر جرّة الماء في مسجد موش.
وقتها أيضاً كان الشيخ ظامئاً. كان يريد أن ينهي أمر العمامة ويضعها على رأسه قبل أن يصل ضيوفه إلى القرية.

كان المريدون يروحون ويجيئون وترتفع همهماتهم وهم يطبخون لحوم خراف سبعة في قدور ضخمة.
كان الشيخ ينتظر ضيفاً مهماً. يوسف ضياء بيك ابن الحاج سعاد. نائب بدليس السابق في مجلس النواب في أنقرة. عضو جمعية تعالي كردستان والشاعر الذي ينشر قصائده في جريدتي روزي كرد وزين. والمناضل في صفوف جمعية آزادي بالإضافة إلى كل ما سبق.
كان الشيخ يعلم بوجود مخبرين سريين للحكومة يوصلون إليها كل تحرّك مشبوه في المنطقة، لذلك أضفى على استضافة يوسف ضياء بيك والفرسان المرافقين له صفة دينية. أشاع أنه سيعقد حلقة ذكر نقشبندي كبيرة.
قبيل الظهر كان يوسف ضياء بيك وبضعة فرسان أمام باب بيت الشيخ. أسرع المريدون إلى الجياد فقادوها من أرسانها إلى الحظائر وقدّموا لها العلف والماء. أمّا الضيوف فقد توجّهوا إلى حجرة الشيخ الذي كان لا يزال يحدّق في كأس الماء.
انحنى يوسف بيك على يد الشيخ وتبعه مرافقوه واحداً واحداً ثم جلس كل واحد منهم في مكانه.
كان الشيخ يريد الاختلاء قليلاً بضيفه الكبير فخاطب بقيّة الضيوف قائلاً:
- أيّها الكرام إن لي حديثاً مع يوسف بيك. عن إذنكم.

وتوجّه الاثنان إلى ظلال شجرة التوت الشامخة وسط الدار، التي تركت أغصانها لنسمات ناعمة تقبّلها بهدوء. طارت العصافير التي كانت على الأغصان وكأنها على علم بالحديث الهام الذي سيخوضه الرجلان وأنه ينبغي أن يجري بينهما فقط. طارت تلك العصافير بعيداً لتحط على أغصان أشجار الحور النامية حول قلعة خنوس.

رمقهما المريدون وهما يتحدّثان. كان صوتهما خافتاً جداً حتى إن تلك الأنسام اللطيفة أيضاً لم تستطع نقل ما دار بينهما.

عرف المريدون أن أشياء هامة يفضي بها أحدهما إلى الآخر. لمحوا الشيخ وهو يصغي باهتمام إلى حديث يوسف ضياء بيك وينظر إلى وجهه الفتيّ النحيل الحزين وشاربيه المحفوفين بعناية وربطة عنقه. وقد بدا من تحريك يوسف ضياء ليديه وجسمه أنه مستغرق في كلام هامّ، وحين أراد أحد المريدين أن يأتي بكأسي ماء طلبهما الشيخ قبل قليل، أشار الشيخ بيده علامة النفي آمراً ذلك المريد أن يبتعد.

- ما القصّة؟ ما هذا الموضوع الذي يبحثانه لدرجة أنه أنساهما الظمأ!

تساءل المريدون.

أثناء الحديث كان يوسف بيك ينزع طربوشه الأحمر من رأسه ويمسح عرقه عن جبينه وصدغيه ثم يعود من جديد وينثر توت الكلام على بساط حاكَهُ صمتُ الشيخ وإصغاؤه.

***

سقطت حبّة توت من الشجرة. حبّة سوداء ناضجة نثرت قطرات من مائها الحلو على عمامة الشيخ الملفوفة حديثاً. مدّ الشيخ يده إلى تلك الحبّة، نفخ فيها مرّتين أو ثلاثاً ليبعد عنها الغبار ثمّ قدّمها إلى ضيفه.

تناول يوسف بيك حبّة التوت التي أنضجها صيف خنوس مثل قلوب العشّاق من مضيفه وأبقاها في يده مشغولاً عنها بمواصلة حديثه.

هبّت نسمة رخيّة من جهة جبال جاوليك فهزت أغصان شجرة التوت التي تظلل الرجلين. هزت كذلك خيوط الحرير المتدلية من طربوش يوسف ضياء بيك. وحين أدرك يوسف بيك أن الشيخ ينظر إلى الخيوط الحريرية السوداء ابتسم ابتسامة زادت من حزن وجهه وقال:

- لقد تبيّن يا مولاي أن الإنكليز يلعبون أكثر من خيوط الحرير المعلقة بطربوشي.

الشيخ الذي كان يصغي بانتباه شديد حتى تلك اللحظة إلى حديث ضيفه، مدّ يده إلى عمامته ثم دفعها إلى الأمام حتى صارت حافتها من الأمام قريبة من حاجبيه الكثيفين الشائبين، ثم أعادها إلى الخلف وسأل:

- كيف؟ نحن نعرف مساوئ الإنكليز. فما هي مساوئ حرير الطربوش؟

- مولاي، هي ليست سيّئة. لكن ما إن تهب الريح حتّى تذهب يميناً وشمالاً. لا تثبت في مكانها.

ثم طفق يحدث الشيخ عن لوزان:

– كنّا نأمل أن يستمرّ الإنكليز في الضغط على الأتراك وأن يجعلونا شركاء في هذه الدولة أو يسمحوا لنا بالاستقلال عنها لنحكم أنفسنا بأنفسنا. الإشارات التي أرسلها لنا الإنكليز وما جرى في سيفر شجّعنا على أن نثور في بعض المناطق. أنت تعلم يا جناب الشيخ أن الناس ثاروا قبل عامين في ديرسم وقوجكيري. كان ذلك بتخطيط منّا. كنّا نظن أن الإنكليز سيحرّكون ألويتهم من العمادية والسليمانية وأن الفرنسيين سيتحرّكون من سوريا ليأتوا إلى نجدتنا. لكن...! ثمّ تعلم يا مولاي ما الذي جرى للناس وكيف أن توبال أوسمان آغا اللازي ألهب البلاد بالنار وعلق رؤوس الرجال على الحراب في طرقات كل قرية ومدينة.

نظر الشيخ إلى حبّة التوت التي كانت لا تزال في يد يوسف ضيا بيك وقال:

- لم تستقرّ حبّة الجوز مرّة أخرى فوق القبّة!

ثم ضحك وأشار إلى حبّة التوت قائلاً:

- كلها يا رجل. كلها قبل أن يفترسها النمل.

ضحك يوسف بيك أيضاً، ألقى حبّة التوت إلى فمه ثم قال:

- مولاي. لقد نضجت الظروف لإعلان الاستقلال تماماً كما نضجت هذه الحبّة. علينا أن نعلنه قبل أن يجتمع النمل عليه.

ثم قرأ بيت شعر للشاعر سياهبوش[16]:

16 من الشعراء الكرد الكلاسيكيين. عاش في القرن التاسع عشر. له ديوان باسم سيف الملوك.

يا حبيبي لو كانت جهنّم فخّاً وكنت أنت حبّة ذلك الفخ

فإنني أقسم مئة مرة سألقي بنفسي فيه لأحصل على الحبّة

ثم نثر من جديد توت خياله أمام الشيخ الصامت:

– عصبة الأمم صامتة أيضاً. الفخّ الذي نصبناه ارتدّ فأطبق علينا. كان الفخ خالياً من أيّ حبّة يا مولاي. كنّا نحن عصافير عمياء سهونا عن الفخاخ المنصوبة. لا أحد يمدّ يد المساعدة لنا يا مولاي. قبل عدّة أشهر التقيت بمسؤول روسي كبير. حدثته عن معاهدة سيفر، عن اتفاقية لوزان، عن الإنكليز ومؤازرتهم لحكومة أنقرة، حدثته كيف أنهم قايضوا حرّيتنا بالموصل في سوق لوزان. أتعرف ماذا قال لي ذلك المسؤول الروسي يا مولاي؟ قال إن علينا أن نضع أيدينا في أيدي حكومة أنقرة لكي نقطع دابر مؤامرات الإنكليز! إنه يريد منّا أن نكون مثل أولئك النوّاب، العديمي الشرف حاشاكم، الذين أبرقوا من برلمان أنقرة إلى لوزان وقالوا إنهم لا يريدون

الانفصال عن تركيا. يا لحظنا المنحوس يا مولاي فحتى الروس، الروس الذين صار لهم مئات من الأعوام يعادون الترك، هم الآن في صف الأتراك.

في ذلك الاجتماع تحت شجرة التوت في بيت الشيخ سعيد بقرية قول حصار تحدّث يوسف بيك للشيخ عن أهداف جمعية استقلال كردستان (آزادي). قال له إن الفرصة سانحة لنيل الاستقلال فحكومة أنقرة أزاحت السلطان جانباً وجعلته أسيراً في قصور إسطنبول التي لم تعد عاصمة. أمّا حكومة الباب العالي فقد رحلت. إن أنقرة تعادي الإسلام صراحة. وهي قد منعت اللغة الكردية وزادت أوضاع الناس سوءاً على سوء.

- إن لم يأت إلينا الناس تلبية لنداء استقلال كردستان فسيهبّون لنجدة دينهم على الأقل. ولا يمكن لأحد أن يقود هذه الحركة سوى جنابكم أيّها الشيخ.

اتفق الاثنان في ذلك اللقاء. كان الشيخ سعيد مستعدّاً ليشعل النار في حكومة أنقرة الكافرة. كان مستعدّاً ليرفع راية الجهاد ضدها. كان مستعدّاً لأن يلقي بنفسه إلى الجحيم ليحصل على حبّة الاستقلال متذرّعاً بكفر حكومة أنقرة وعدم شرعيتها.

دام اجتماعهما بضع ساعات حتى ضجر المريدون. كانوا ينتظرون أن يدخلوا حلقة الذكر ويتوجّهوا إلى الله مع شيخهم مغمضي الأعين يستحضرون شاه نقشبند ومولانا خالد وسائر شيوخ الطريقة النقشبندية.

وحين نهض الشيخ وضيفه سمعا جلبة. كان ثمّة رجل يحمل كيساً على ظهره وينادي: "أين الشيخ؟ أين الشيخ؟" أمسك المريدون به ولم يسمحوا له باقتحام خلوة الشيخ مع يوسف بيك اللذين حين لمحاه صرخا بصوت واحد:

- أواه. هذا خالص!

وأشار الشيخ بيده للمريدين أن اتركوه.

حين اقترب خالص البدليسي من الشجرة علق سرواله الجوخ البنّي المخطط بحجر فتعثّر به وسقط على وجهه. سقط الكيس أيضاً وتناثر ما فيه من جوز.

***

تناثر الكلام من فم خالص البدليسي، رفيق الشيخ أيّام الدراسة في موش، مثل حبّات جوز يابسة. خالص البدليسي ذاك، الذي شهد كيف أن العمائم تتدحرج عن رؤوس الملالي الذين أعدموا برفقة الملا سليم قبل ثمانية أعوام كان قد جُنَّ على أثر ذلك وصار يجول هنا وهناك يحمل كيساً من الجوز على كتفه ويرمي ما فيه على كلّ قبّة يصادفها.

قال خالص للشيخ:

- منذ ثلاثة أيّام وأنا أسافر. ألهذه الدرجة يمكن أن يبتعد المرء؟ ذهبت إلى موش فلم أرك هناك ثم توجّهت إلى كِمْكِمْ دون أن أدري كيف قطعت نهر مراد. لم أشعر إلّا وأنا أسفل

سفح شرفدين. هناك أيضاً لم أشمّ رائحتك. هناك قالوا لي إن الشيخ في خنوس. هل صحيح أنت في خنوس؟

وانحنى يلتقط ما تناثر من جوز على الأرض. جمعها حبّة حبّة وأعادها إلى كيسه.

***

كانت سماء دياربكر تنفض في ذلك الليل البهيم آخر ما بقي في حقيبتها من نجوم. كان الظمأ يزداد والموت يقترب أكثر كلما مضى الوقت. تأرجحت الأجساد الستة والأربعون بطيئة على وقع نسمات هادئة. اجتمع كلّ الضباط والجنود والجندرمة وأعضاء المحكمة والطبيب أمام مشنقة الشيخ. كان الحديث عند تلك المشنقة في تلك الساعة بالتركيّة فقط. أمّا الأجساد المعلقة فقد كانت وحدها تتكلم بكردية مخنوقة.

- الساعة الثانية إلا عشر دقائق.

شقّ صدر الظلام صوت خشن بالتركية يعلن الوقت. عرف الشيخ الآن كم الساعة.

- أسرعوا.

صدر أمر بالتركية من أحد الضباط إلى جندي بقي وحيداً بجانب الشيخ.

انتفض الجندي الذي كانت عيناه تقاومان مشنقة النعاس حين سمع صوت الضابط. مدّ يده إلى حبل المشنقة الذي كان ملفوفاً

على رقبة الشيخ. شدّ عقدة الحبل قليلاً ليضيّق الحلقة. ثم سأل بسخرية:

- هيه. أيؤلمك هذا يا شيخ أفندي؟

لم يسمعه الشيخ الذي كان يخوض أوقيانوس الخيال حينذاك. كان بحر عمره يتماوج بصخب ويسعى إلى نهايته. لكن كان لا يزال في حقيبته بعض الجوز ينثره أمام قدمي ربّه الذي في الأعالي، الجالس على عرشه النوراني المستغرق في عسل نومه.

ربيع العام الفائت، جاء يوسف ضياء بيك مرة أخرى لزيارته في قرية قول حصار. كان قادماً من عند خالد بيك جبري في كاني رَشْ. بوجه مستبشر غابت عنه ملامح الحزن التي طفحت عليه قبل ثمانية أشهر، سلّم يوسف ضياء بيك رسالة خالد بيك إلى الشيخ. رقصت فراشات الأمل على وجهه فقال للشيخ:

– مولاي. القتال قدرنا. ها قد زالت الخلافة ونُفي السلطان أيضاً. سينضمّ الناس إلينا أفواجاً. سنسلّح العشائر الكردية. السلاح كثير يا سيّدي. لقد خبّأ الناس السلاح الذي تركه العثمانيون والروس خلفهم في الحرب الكبرى. لقد خبّأوه وخزنوه في الكهوف. ثمّة أحمال من السلاح في القرى يا مولاي الشيخ. صدّقني ما زالت هناك بنادق غير مستعملة وصناديق الخراطيش كما كانت عند الآغوات والبيكوات. سيساندنا سمكو آغا الشكاكي والشيخ محمود من السليمانية

أيضاً. لقد تحدثنا مع الديرسميين ولاقينا صعوبات في مباحثاتنا معهم لكن إن شاء الله فسينتفضون هم أيضاً معنا. سنبعث رسائل إلى عصبة الأمم نشكو فيها ضياع حقوقنا ونبيّن أن قتالنا هو لأجل استرجاعها.

في الخريف أرسل الشيخ بناءً على طلب جمعية آزادي ابنه علي رضا إلى حلب وقال له:

– من هناك خذ قطيع غنم إلى إسطنبول للتغطية على نشاطك. عليك أن تلتقي بسيد عبد القادر وتشرح له كل شيء جرى معك وأجريته في حلب. ثم عد من هناك وسنلتقي في بيت خالد بيك.

خوفاً من الجواسيس والمخبرين الذين زرعتهم حكومة أنقرة في كل مكان خرج علي رضا في هيئة تاجر غنم متّجهاً إلى حلب ليجتمع مع بعض أكابر الكرد ووجهائهم ووضعوا بعض الخطط. من هناك انطلق إلى إسطنبول والتقى سيد عبد القادر. قضى في إسطنبول بضع ليالٍ ثمّ اتّجه إلى أرضروم ليذهب إلى بيت خالد بيك جبري في كاني رش. هناك كان أبوه الشيخ سعيد ضيف خالد بيك.

كان علي رضا قد جاء معه بقرار إشعال انتفاضة كبيرة:

- في الأول من رمضان.

- أليس ذلك بعيداً يا ولدي؟

- لا يا أبي. الأول من رمضان يصادف بداية الربيع. يصادف النوروز. لن تتفتح الأزهار وتتفجّر الينابيع فقط.

القلوب أيضاً.
أمال خالد بيك طربوشه قليلاً ثم قال:
- لقد اختاروا وقتاً مناسباً. ستتكسر شوكة البرد وتضجّ القلوب بالربيع قبل الطبيعة.
- لكن الذئب الأغبر ليس هيّناً. إنه يتلصّص ويراقب الخراف الوليدة حديثاً.
- مولاي. إن كان الراعي يقظاً فالذئاب لا تقترب من القطيع.
وشرع الثلاثة يخيطون الأحلام إلى قلوبهم بخيط واهٍ.
خريف تلك السنة أرسل خالد بيك جبري برقيّة مشفرة إلى الضبّاط الكرد في هكاري كتب فيها:
- أطلقوا سبيل الخراف كي ترضع الحليب.
أساء الضبّاط فهم الشيفرة فذهبوا إلى الجبال وكأن الربيع قد بدأ. كان جواسيس أنقرة يتابعون ويرصدون كل نشاط. راقبوا صعود الضبّاط مع ألف وخمسمئة جندي إلى الجبال وأخبروا الدولة بذلك. فهم الضبّاط الكرد بعد فوات الأوان أن البرقيّة لم تطلب منهم الصعود إلى الجبل استعداداً للثورة لكن لم يبق أمامهم أيّ سبيل للتراجع فاضطرّوا إلى التوجّه شرقاً لاجتياز الحدود.
فاحت رائحة الانتفاضة. لقد كُشف عنها الغطاء وبدأت الدولة تحرّياتها.
تغلغل عناصر الدولة في القرى والبلدات مثل ثعالب تتسلل إلى كرم. ألقوا القبض على الأعيان الكرد وكلّ من فاحت منه

رائحة النار. اعتقلوا الميرآلاي خالد بيك جبري في أرضروم ويوسف بيك ضياء في بدليس وحوكما أمام محكمة عسكرية في بدليس. اعتُقل العشرات ووقعوا في الفخاخ المنصوبة اللامرئية.

كان الشيخ لا يزال في قول حصار حين سمع خبر اعتقال صديقيه. بعد أيّام جاءه قائممقام خنوس زائراً:

- يا شيخ أفندي. نحتاج إلى إفادتك. ونرجو أن تتفضّل معنا إلى بدليس.

عرف الشيخ أن الإفادة حجّة لاعتقاله. كان يخشى أن يكون خالد بيك ويوسف بك اعترفا تحت التعذيب بأمور سرّية دارت بينهم. يا إلهي.

سعل الشيخ. وضع يده على صدره ونظر في عيني القائممقام وقال بصوت واهن:

- يا حضرة القائممقام. أنا رجل مريض والصقيع يملأ الأرض. أترى من المناسب أن يذهب شيخ عجوز من ههنا إلى بدليس من أجل تقديم إفادة؟ حتى لو ذهبت إليها على فرس تلزمني ثلاثة أيام. لا أستطيع.

لم يذهب الشيخ. كانت منطقة سرحدان قد التحفت بثلج صامت أبيض مثل عمامته المتدحرجة الآن أسفل قدمي عناصر الجندرمة. في ليلة هادئة صامتة قام وارتدى جبّته، وضع عمامته على رأسه، ثم حمل معه المنديل الأخضر الذي

تتوسّطه شمس حبّ غارب بسبعين شعاعاً وانطلق إلى بلدة كمكم.

ظلال القلب الخضراء

”الظلّ راحة ما وراء الحجب.“

ابن عربي

أخرج الشيخ منديله الأخضر، الذي كان مثل ربيع مخبوء تحت ثلوج جبّته البيضاء، وقال:

- ما في الجبة إلّا نيرانٌ مستعرة. إنّها لم تعد تضمّ شخصاً اسمه سعيد النقشبندي.

ورفع المنديل يريه للقرويّين والشيوخ والملالي وطلبة الفقه والمريدين الذين اجتمعوا حوله. أخرج ورقة من جيبه. لم تكن تلك الورقة سوى رسالة إلى عشائر الخورمكيين كتب ديباجتها بالعربية:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد سعيد النقشبندي إلى رؤساء عشائر الخورمك.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وله الحمد والمنّة.

طلب الشيخ في رسالته تلك من رؤساء العشائر العلوية أن ينضمّوا إليه لأن ما يقوم به، كما أوضح، ليس سوى نضال قومي وليس مذهبياً. كتب لهم الشيخ أن عليهم أن يسلكوا طريق الإمام الحسين ويقاوموا ظلم أنقرة وكفرها. إن هذه الأرض كلها كربلاء فتعالوا لنكون كلنا مثل الحسين. هكذا كتب لهم الشيخ.

وبدل أن يجيب الخورمكيون على رسالة الشيخ بنعم أو لا، أوصلوها إلى قائممقام كمكم.

- يبدو أن الأمر لن يستقر لي هنا.
قال الشيخ بمرارة وترك تلك النواحي ليذهب صوب الجنوب الذي سيغلي بالثورة.
التحق الناس به من كل حدب وصوب. هدروا كالأمواج. بدا الشيخ حين صار يمضي بفرسه الكميت في تلك الأودية والشعاب والدروب الوعرة من الجبال، مرتدياً جبّته البيضاء، مثل شمعة مضيئة تطوف به الفراشات.
توقف الشيخ في صالوخان. كانت ندف الثلج التي تتساقط على عمامته ولحيته وجبّته فتذوب سريعاً من أثر أنفاسه الحرّى.
لوَّح بالمنديل الأخضر بيده المرتعشة قهراً التي برزت عروقها الزرقاء وقال:
- قولوا للخيّاطين، قولوا لنسائكم وكنائنكم فليخيطوا أعلاماً ورايات كهذه. ستكون هذه الراية علامة جهادنا. ستشرق علينا شمس جديدة في هذا الربيع.
اضطرّت جمعية آزادي لأن تعلن الشيخ قائداً لها بعد اعتقال الميرآلاي خالد بيك جبري ويوسف ضياء بيك في بدليس. أدرك الشيخ أن القدر حمَّله عبئاً أثقل من أحمال الملح. لكن لا مفرّ. إن ترك الناس هكذا بلا راعٍ قلّة نخوة وعدم رجولة. هكذا كان يقول الشيخ لنفسه وينظر بعينين دامعتين غاضبتين حزينتين إلى منديل بريخان.

- أقسم بالله تعالى لن أضع هذه العمامة عن رأسي إلى أن أستشهد في سبيل الدين والناس أو أنتزع الاستقلال من بين أنياب الذئب الأغبر وخلق فرقه سي "حزب الشعب" بالقوّة[17].

[17] حزب الشعب هو حزب أتاتورك. وهو من الأحزاب القومية المتطرفة.

زار الشيخ كثيراً من القرى قرية وراء قرية، وجال بين المدن مدينة إثر مدينة. لا الثلج ولا العواصف ولا ريح الشمال ولا الصقيع الشديد وقف عائقاً أمامه. أصبح الشيخ سهماً أطلقته قوس القدر. ما كان بإمكان أيّ شيء ولا أيّ أحد من الناس أن يوقف ثورة قلبه الذي أشرقت عليه شمس ساطعة كتلك الشمس المرسومة على منديله الأخضر.

ازداد عدد المريدين الملتحقين به. انشغل الناس بخياطة رايات خضراء كحقول النعناع تشرق وسطها شموس كأنها دنانير ذهبية. في قرية جاني، احتدّ وغضب. رمى على مرأى من أولئك الشيوخ، الذين رأى قبل قليل جثثهم المتدلية من المشانق، مسبحة اشتراها من أرضروم وقال:

- يا معشر المشايخ، أيّها الملالي. يشهد الله فاشهدوا أنتم أيضاً. لقد رميت مسبحتي وحملت البندقيّة. إن ذكر الله يكون أفضل بالبنادق أيّها المسلمون.

من هناك، توجّه إلى كاهكيك، قرية عمر آغا فارو. كان عمر آغا يحمل على الدوام الغليون في فمه وتشي به أينما

ذهب حلقات من الدخان يرسمها فوق رأسه. هناك أقسم عمر آغا وهو يحشو غليونه بالتبغ:

- أقسم بضريح النبي محمّد تحت تلك القبّة الخضراء سأحرق جسدي مثل هذا التبغ في سبيلك يا مولاي.

ضحك الشيخ. أزاح الدخان عن وجهه بيديه وقال:

- بل عليك أن تحرق كفّار حزب الشعب يا عمر آغا لا روحك.

***

غطى البخار الذي خرج من منخري فرس الشيخ وجه سائسه شركس الزازي الذي كان يمسك باللجام. كان ذلك بخاراً يشبه الدخان الذي نفثه علي آغا فارو في ذلك اليوم.

صارت منطقة سرحدان وراء الشيخ المقبل على قدر مجهول. توجّه الشيخ في ذلك الشتاء المثلج صوب ليجه. من بعيد بدا نهر دجلة وسط الثلج مثل عروق جيد بريخان.

كان المنديل الأخضر القابع في جيبه فوق جهة القلب يضيء قنديل قلبه المشتعل ويدفئه أكثر.

بالقرب من أحد الجسور، وقبل أن يصل إلى المدينة وصل إليه مئات المريدين من قرى أرغاني ومعدن وأكيل وهازرو وفارقين وخيني وجنار وباسور وحتى بسمل وجرموك أيضاً. بعضهم جاء إليه بالمرضى والزمنى وبعضهم بالمجاذيب، بعضهم بالمشلولين والعجزة المقعدين والصمّ والبكم والعمي

يستغيثون ويصرخون ويطلبون من الشيخ أن يدعو لهم ولمرضاهم بالشفاء.

بات الشيخ ليلته في قرية دملى حيث توزع الراجلة والفرسان الذين معه على بيوت القرية، وفي اليوم التالي الذي صادف الاثنين عقد الشيخ حلقة ذكر التوجّه الكبيرة.

- هذه ليست حلقة ذكر يا رجل. إنها يوم الحشر.

- هل رأيت الشيخ أنت أيضاً؟

- كيف لا؟ لقد قبّلت يده أيضاً.

- وأنا شممت جبّته. والله تعبق منها رائحة الجنة.

- وهل رأيت الجنّة يا هذا؟ الرائحة التي شممتها هي رائحة أعمدة عرش الرحمن.

- وأنا؟ والله شربت الماء الذي توضّأ به. أقسم بالقرآن إن مرض بطني زال فوراً.

- هل لاحظت أنت أيضاً ظلّه؟ أقسم بالله لقد كان أخضر. لقد رأيت ظله منسكباً على الثلج مثل عشب أخضر.

- أقسم بالقرآن لقد لاحظت ذلك أنا أيضاً.

هكذا كان المريدون يتحدّثون في ما بينهم.

في حلقة الذكر تلك، ولأول مرة، قرأ الشيخ سعيد قصائد كردية على مسامع مريديه. كلما دار على أحد المريدين شمله بجبّته وقرأ بيتاً للجزيري أو خاني أو مولانا خالد. قرأ أيضاً بعض الأبيات بالفارسية والزازائية.

بكى المريدون حين سمعوا الشيخ يقرأ لهم القصائد بصوته الذي أضفت عليه الشيخوخة شجناً وطلاوة. كانوا يضعون أيديهم على صدورهم في جهة القلب يصغون بخشوع ويبكون. كانت أنفاس الشيخ تدفئهم وكانت رائحة المسك التي تعبق بها لحيته تأخذهم إلى مروج الجنّة التي ملئت حوراً ونوراً وخضرة أبدية.
كانوا يبكون فيبكي الشيخ وينشد:

إن لم يغثنا أحد فما فائدة الاستغاثة؟

وإن لم يك لك أحد نصيراً فلماذا تستنجد؟[18]

[18] بيت من قصيدة في ديوان الجزيري أحد أكبر شعراء الكرد. عاش في القرن السابع عشر.

أخرج الشيخ من جيب سترته منديلَه الأخضر ومسح به دموعه دون أن يراه أحد.
لقد بات على يقين بأن القدر أعدّ خطواته لفخ جميل حادّ الأسنان، بات يعرف أن الدول المتذبذبة قد ولّت الكردَ ظهورها وأنها كالدببة مشغولة الآن بالعسل الذي تقدّمه لها أنقرة. عرف أنه بعيد عن الشواطئ وسط بحر مائج.
أنشد الشيخ بعد أن استذكر كل هذه الأفكار في أذن أحد المريدين:

من أين سيعرف خفيفو الأحمال على الشطآن بأحوالنا؟[19]

[19] بيت من قصيدة شهيرة لحافظ الشيرازي.

نعم. من أين سيعرف بأحوال الشيخ ورفاقه من كانت أحمالهم خفيفة يستجمّون على ضفة بحيرة ليمان في لوزان ويلقون صناراتهم في البحيرة ينتظرون أسماكاً تعلق بها وهم يدخّنون ويتدفّأون بالنار المتقدة بين الأثافي؟ من أين سيعرفون بأحوال أولئك الألوف المؤلفة من المريدين الذين اجتمعوا دون أن يعرفوا ما الأمر؟

من أين سيعرف الناس على ضفاف التايمز وهم يتبادلون التحيّات وسط الضباب ويرفع بعضهم القبّعات لبعض، أن الحمل الذي وضعوه على كاهل هذا الرجل السبعيني حمل من رصاص؟

من أين سيعرف الشباب والصبايا على ضفاف الفولغا المتجمّد، الذين يشعلون بشفاههم نيران الحبّ، ما يشعله هذا الشيخ من نيران تتّقد في هذه القرى؟

اقترب الشيخ من مريد آخر كانت دموعه تنحدر من عينيه المغمضتين فأنشد:

مرّة ينهبون القلب، ومرّة ينهبون الروح

إنهم مثل الترك. وغاراتهم ليست بلا سبب[20]

[20] من قصيدة شهيرة للجزيري.

بعد أن تناول المريدون خبز التوجّه[21] رافق الشيخ بضعة أشخاص إلى مقام بير منصور. هناك، وأمام باب الضريح قال الشيخ لمرافقيه:

[21] التوجّه: هو حلقة الذكر النقشبندي التي تتحدّث عنها الرواية وتعقد أيام الاثنين.

- ابقوا هنا وسأذهب وحدي.

خلع الشيخ حذاءه ودخل ثم أغمض عينيه خاشعاً. تخيّل خضرة بهيجة سرعان ما تحوّلت إلى حمرة بلون الدم. غرز الخوف مخالبه في قلبه ففتح عينيه وخرج مسرعاً. كان المريدون واقفين باحترام صامتين وما إن لمحوا الشيخ حتى فغروا أفواههم مندهشين ثم قال بعضهم لبعض:

- انظروا إلى هذه الكرامة! ظلّ الشيخ أخضر. ما أشدّ خضرته!

التفت الشيخ ونظر خلفه. رأى ظلّه فقال للمريدين مبتسماً:

- هذا ظلّ القلب. إنّه ظلّ قلبي.

ثم قال بصوت مخنوق:

- أيّكم فرسه أسرع؟

- فرسي يا مولاي. مرني أنا رهن إشارتك.

- كم سيستغرق الوقت لتصل إلى هوزات؟

- يومين فقط. وربما ثلاثة أيّام. أنت تعلم يا مولاي أن في الطريق إلى هوزات أنهاراً وأودية. وأكثر منها يوجد مخبرو الحكومة الكافرة.
لقن الشيخ مريده بضع كلمات طلب منه أن يعيدها مراراً حتى اطمأنّ إلى أنه حفظها ووعاها فربّت كتفه وقال:
- انطلق إذاً إلى سيد رضا[22]. رافقتك البركات ورعاك الله.

22 شيخ كردي علوي. ثار على الكماليّين فأعدمه أتاتورك عام ١٩٣٧.

ثم التفت إلى المريدين الآخرين وقال:
- إن لم يساندنا سيد رضا فلن تتيسّر أمورنا.
ومشى. مشى خلفه المريدون وهم ينعمون النظر إلى ذلك الربيع الأخضر الذي كان يتبع ثلج جبّته.

***

في ليجه، لمح الشيخ وهو عند باب المسجد فارساً من بعيد يأتي كأنه الربيع. تطاير الثلج من بين حوافر الفرس كأنها روح شتاء في النزع الأخير.
كان الناس المحيطون بالشيخ يتأمّلون ظله الأخضر حين اقترب الفارس. صار قلبه يدق بتسارع. تمنّى أن يكون ذلك الفارس مبعوثه الذي أرسله قبل بضعة أيّام إلى هوزات. تمنّى أن يكون الفارس يحمل رسالة من سيّد رضا. توجّه بقلبه إلى السماء:
- يا ربّ.

تهامس المريدون في ما بينهم:
- ها قد جاء فهمي أفندي.
- إنه فهمي من ليجه.
ترجّل الفارس وانحنى على أذن الشيخ طاهر شقيق الشيخ سعيد يهمس فيها. ثم جاء الاثنان حتى وقفا بجانب الشيخ.
- أنا قادم لتوّي من دياربكر يا مولاي. أرجو أن تسمح لي بخلوة معكم.
مشى الشيخ فتبعه فهمي أفندي ثم تبعهما المريدون. وبإشارة من الشيخ توقف المريدون كلهم في أماكنهم وأطلقوا نظراتهم كالقطا تتبع الظلّ الأخضر.
- مولاي إن الناس لا يعرفون حقيقة الأمر. وقد بقي لرمضان أربعون يوماً. وإذا اجتمع الناس الآن فإن من الصعب أن يجتمعوا مرّة أخرى لأن هممهم ستفتر ولن يلبّوا نداءنا. ثمّ إن الحكومة صارت تراقب تحرّكات الجميع بعد هروب الميرآلاي إحسان باشا وإلقاء القبض على يوسف ضياء بيك وخالد بيك جبري. لا شك في أنهم يراقبونك الآن خطوة خطوة. لقد قرّرت جمعية آزادي أن يبتعد جنابكم الآن عن الساحة وتعتزل الناس قليلاً.
هكذا قال للشيخ في حجرة مسجد ليجه كاتبُ العرائض فهمي أفندي من ليجه، الذي كان يجيد التركية والفرنسية إلى جانب الكردية والذي سيصبح اسمه في ما بعد كاتب الشيخ. هز الشيخ رأسه، مسح بكفّ يده اليمنى لحيته وقال:

- نعم يا ولدي. ليكن كذلك. لكن الله يفعل ما يشاء.

مساءً اجتمع الناس في المسجد. كان الذين أعلنوا التوبة حديثاً على يد الشيخ يجلسون مسرورين على ركبهم قريباً من عتبة الحجرة بين الأحذية. توجّه أحد آغوات هيني إلى الشيخ وقال له باحترام:

- مولاي لقد جاء دور هيني. نحن نتشرّف بزيارتك لها.

نظر إليه فهمي بلال شزراً ثم نظر إلى الشيخ بوجه يملأه السؤال والترقب. فهم الشيخ سخط فهمي أفندي فقال موجّهاً كلامه لذلك الآغا:

- لا يمكن. لا وقت لديّ. فلنؤجّلها إلى وقت آخر.

- روحي فداك، إننا ننتظر هذا اليوم منذ زمن طويل. أرجو أن تشرّفنا.

رمقه فهمي بلال بنظرة أحدّ من سابقتها وقال له:

- يا أخي لا تزعج الشيخ. الوقت شتاء والبرد شديد.

- أحلف بالطلاق، باثنتي عشرة طلقة لا مجال للفتوى فيها، فلتتطلق زوجاتي الأربع منّي إن لم يكن الشيخ ضيفي غداً في قرية هيني.

لم يرد الشيخ أن يكسر بخاطره وقال لنفسه: "لا بأس. سأبقى في هيني يوماً. لا يضرّ". ثم نظر إلى فهمي بلال نظرة اعتذار والتفت إلى الآغا يقول له:

- لقد أسأت التصرّف. لا تحلف بالطلاق. لكن لا بأس سآتي لزيارة القرية من أجل قسمك هذا. لا رادّ لقضاء الله.

تحلق المريدون في المسجد حول شيخهم العجوز الذي يفرك عينيه من الألم. ورويداً رويداً بدأ المجلس ينفضّ وامتلأت كوى الحجرة التي كان ذكر نقشبندي خافت تتمتم به القناديل بلسان من ذهب يندلق منها بضوء أخضر.

***

كانت ريح الشمال تزأر بالذكر في هيني على طريقة القادريين[23]. مثل راعٍ دفعت تلك الريحُ الغيومَ المجتمعة كقطيع حملان صوب دياربكر حتى لم تبق غيمة واحدة في السماء.

23 أتباع الطريقة القادرية يجهرون بالذكر ويجأرون ويرفعون أصواتهم بعكس النقشبنديين الذين يكون ذكرهم خفيّاً صامتاً.

كانت عينا الشيخ تؤلمانه بسبب الثلوج التي هطلت تلك الأيام. تذكّر الكحل الذي كانت تعدّه بريخان له أيّام شبابه الأول.

تألّم قلبه.

ما إن خرج الشيخ من بيت ذلك الآغا الذي حلف بالطلاق إن لم يزره الشيخ في قريته واتّجه إلى المسجد حتى لمح أحد مريديه قادماً من جهة السوق. حين وصل المريد إليه طأطأ رأسه بتذلل وقال:

- مولاي إن أخاك عبد الرحيم موجود هنا مع مئة من الفرسان.

- عبد الرحيم؟
سأل الشيخ فزعاً.
كان عبد الرحيم في فناء المسجد وبجانبه بندقيّته المارتين يتحدث إلى مجموعة من المقاتلين القلبينيين والديريين والبيرانيين الذين ما إن لمحوا الشيخ حتى نهضوا جميعاً وانحنوا يقبّلون يد الشيخ واحداً وراء الآخر. نظر الشيخ بوجه ممتعض إلى أخيه وسأل بنبرة جافة:
- خيراً يا عبد الرحيم؟
- نحن أيضاً يا أخي نريدك أن تأتي إلى بيران قبل أن يستضيفك الآخرون.
- لا أستطيع. لا وقت لديّ.
قال المقاتلون المرافقون لعبد الرحيم متضرّعين:
- نرجوك يا مولانا. لقد قلنا للناس سنأتي بجناب الشيخ. نستحلفك بالله أن تأتي معنا.
- قلت لكم لا أستطيع. لا يمكن.
- نرجوك يا أخي أن تأتي معنا. أستحلفك بقبر أبي أن تأتي. صار لي ثماني سنوات في بيران أنتظر يوماً كهذا. لقد ذهبت إلى بيت أخي مهدي في سارد وها أنت في هيني فتعال إلى بيران أيضاً.
- يا عبد الرحيم لا تلحّ عليّ. لا أستطيع أن أذهب ولا أستطيع أن أشرح لك لماذا لا يمكنني الذهاب معكم.
- مولاي إن بيران قريبة. على بعد رمية حجر.

تجادلوا كثيراً. كان الشيخ يعيد عليهم أنه لا يستطيع الذهاب دون أن يكفّ عبد الرحيم ورفاقه الملحاحون عن دعوته.

- يا عبد الرحيم سآتي معكم. لكن عليك أن تعلم أن إلحاحك هذا سيوردنا المهالك.

قال الشيخ جملته تلك بقلب كسير ووجه مكفهرّ هبّت عليه عواصف اليأس ثم ذهب ليجلس في المحراب حزيناً.

أغمض عينيه الكليلتين وصار يردّد: حمقى، حمقى، كأنّه يردّد أذكاراً.

***

- حمقى.

قال الشيخ في قلبه الذي عصرته الخيبة وهو ينظر إلى أخيه ورهط الفرسان المسلحين الذين أوصلوه إلى بيران.

لم يكن يستطيع أن يفسّر لهم لمَ لا يريد الذهاب معهم. كان إصراره على عدم التنقل سيفضح ما خطط له حيث كان يجب أن يرمي سهم الانتفاضة من قوس القدر في الأول من رمضان. ما كان يجب أن يفصح أنّ القلوب التي يملأها غضب السنين ستتفتح مع تفتح الأزهار والورود.

كان الجواسيس في كلّ مكان. وقد بات جليّاً أن تحرّكاته خرجت عن كونها مجرّد زيارات لقبور الأولياء والصالحين وإرشاد الناس وتشجيعهم على التوبة.

- حمقى.

ردّد الشيخ هذه الكلمة ثم أخرج منديله الأخضر من تحت الحزام ليمسح عينيه ويقول بغضب:

- حمقى. والله حمقى.

هناك، في بيت أخيه عبد الرحيم التقى بمبعوثه إلى سيّد رضا. تنفّس الصعداء قليلاً. أجلسه بجانبه وتحوّلت كلّ جوارحه، القلب والروح والعينين واليدين إلى سؤال كبير:

- ماذا قال؟

- مولاي...

تلعثم مبعوثه. ابتلع ريقه. خرجت منه كلمات غير مفهومة بنبرة حزينة. قال الشيخ بحدّة وغضب:

- قل لي بمَ أجابك؟

- مولاي. إنّه لا يستطيع. لن يثور.

مسح الشيخ عينيه الملتهبتين ثم نظر إلى السماء التي لاحت من نافذة الحجرة كمن ينظر إلى مرآة القدر. قال وهو يتنهّد بحسرة:

- سيثور يا بنيّ. سيثور. سيثور ذات ربيع لكن دون أن تفيدنا ثورته بشيء.

وفجأة انحدرت مرارة فظيعة إلى حلقه وكأنّ ثمّة من وضع يديه في رقبته يريد خنقه.

ظلال تختفي في اللهب

"أأبوح لكم كم خدعني الجيران لأدخل هذا السباق؟"

سليم بركات – الديوان

ضغط الحبل الملتفّ على رقبة الشيخ قليلاً على حنجرته. مياه مرّة سالت في برّية فمه الجافّ الظامئ. نهر علقم من الذكريات جرى في صحراء خياله.

- لم يأتِ سيّد رضا لنجدتنا. لم يأتِ سمكو شكاكي ولا الشيخ محمود من السليمانيّة. لكن على الأقل لم يغرزوا نصل الخنجر في ظهري كما فعل رؤساء العشائر.

تذكّر من جديد جوز خضر البوطي وخالص البدليسي.

- وحبّة الجوز التي رميتها أيضاً لم تستقرّ على القبّة.

عجّت دروب خياله وأزقته الضيّقة بصور أخيه عبد الرحيم وأولئك الفرسان المسلحين الذين ملأوا شوارع ليجه وسوقها ذات شباط مجنون.

- ليتني لم أذهب معك إلى بيران يا عبد الرحيم. ليتني لم أسمع كلامك. ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلت أنت يا عبد الرحيم؟

ولاح أمام خياله في ذلك الظلام الدامس ربيع العام الفائت مثل سجّادة خضراء.

***

كان قد بقي لرمضان شهر ونصف. والشتاء يخبّئ تحت ثلوجه بساطاً تنسجه أنامل الزمن وترسم عليه نقوشاً ذهبيّة كالشمس.

تحلق المريدون حول الشيخ في بيت عبد الرحيم صامتين، مقنعي الرؤوس، عاقدي الأيدي على الصدر، جالسين على ركبهم ينظرون إلى الأرض. تفرّس الشيخ في بعضهم. كانت وجوههم تخفي أسراراً شتّى. مال على أخيه وقال وهو يشير إلى أحد الجالسين:

- من ذاك؟

- هو ولي هديكي من قلبين. والذي بجانبه حسكى عليكي من ديره. والثالث...

- لماذا يحملون البنادق؟

- هاربون من الدولة. محكومون.

- وماذا يفعل مَن عليه أحكام في مجلسي؟

- إنهم ضيوف يا أخي. ضيوف. سوف يذهبون بعد قليل.

فجأة، نهض أحد الجالسين ممّن لاحظوا مثل الشيخ أولئك المسلحين وخرج لا يلوي على شيء.

تنقل عبد الرحيم ببصره بين أخيه الشيخ وأولئك المسلحين الذين أشار إليهم. تعرّف إلى ذلك الشخص الذي خرج مسرعاً لكنّه لم يتكلم لأنّه لم يشأ أن يعكّر مزاج أخيه الشيخ سعيد الذي كان قد لاحظ بدوره ما جرى فقال محتدّاً غاضباً:

- ومن هو ذاك الذي خرج آنفاً؟

قال نبو آغا كلش الجالس بجانب الشيخ بلامبالاة:

- لا تهتمّ يا مولاي. إنّه إبراهيم حج علي. أحد مخبري الدولة. رجل قليل الأدب حاشاك.

ازداد غضب الشيخ. رمق أخاه ونبو آغا وقال بحزن:

- لم تحسنوا صنعاً. لقد سلبتموني حبّة الجوز.

- الجوز؟

فكر الاثنان، نبو آغا وشقيق الشيخ، وهما يتبادلان النظرات دون أن يفهما مغزى الكلمة. قال نبو آغا:

- أرجو ألا يتعكّر مزاج مولانا الشيخ. لا تشغل نفسك يا سيدي.

- كيف لا أشغل نفسي يا نبو آغا؟ سيذهب الآن ويخبر الشرطة في المخفر.

- المخفر! يا سيدي هذا المخفر حديث البناء وهو قريب من هنا في حارة جَلّان وليس فيه سوى جاويش وعسكريين بائسين ونعرفهم كلهم. أحد العسكريين هو عبدك إبراهيم الذي خرج قبل قليل.

- لم تحسنوا صنعاً. لقد سلبتموني حبّة الجوز.

كرّر الشيخ حزيناً ثم التفت إلى سائسه شركس الزازي وقال:

- أخرجوا المحكومين من مجلسي. خذوهم إلى بيت آخر أو فليجلسوا في حجرة أخرى غير هذه.

خرج المحكومون واحداً تلو الآخر.

دهش المريدون. تبادل نبو وشقيق الشيخ النظرات من جديد وفكّرا: "عن أيّ جوز يتحدّث الشيخ؟ لم نر في يده شيئاً. أنحن

أمام إحدى كراماته يا تُرى؟".
قلب الشيخ الموضوع في رأسه. وحين قرّر أن يترك المجلس ويغادر بيران إلى هيني تناهت إلى سمعه جلبة عناصر الضبطية من جندرمة المخفر. تسمّر في مجلسه كأنه خيط إلى الأرض.
اقتحم الجندرمة المسلحون المجلس يتقدّمهم رئيس المخفر الذي صرخ دون أن يلقي التحيّة:
- أين هم المحكومون؟
- ماذا تريدون منهم؟
تردّد صدى سؤال يتيم في أرجاء المجلس.
قال رئيس المخفر بحدّة:
- نحن نبحث عن هاربين من الدولة.
فار الدم في عروق نبو آغا وعبد الرحيم. هبّ الاثنان لمواجهة رئيس المخفر لكن الشيخ أشار إليهما طالباً الجلوس ثم توجّه إلى رئيس المخفر وقال:
- نحن الآن في مجلس وعظ وإرشاد. أنتم تعرفون أن اليوم يوم جمعة وأن الجميع سيأتون لسماع المواعظ. إن إخراج من تطلبونهم بتلك الطريقة غير لائق. ثم إنهم ليسوا في مجلسي أصلاً.
- يا شيخ أفندي هؤلاء عليهم أحكام ومطلوبون للدولة. لقد ارتكبوا جرائم قتل. ومن واجبي أن ألقي القبض عليهم. ماذا يعني غير لائق؟

- إنني أعرف واجباتك يا سيد. لكن أرجو أن تؤجّل الموضوع احتراماً لي. قريباً سأذهب من هذا المجلس عندها افعل ما يحلو لك.

فتل رئيس المخفر شاربيه، دفع صدره إلى الأمام، أمسك بمسدّس البرنو ثم قال بحدّة:

- الدولة هي التي يجب أن نحترمها يا أفندي. لقد ولّى زمن العثمانيين. الآن يوجد قانون، توجد جمهورية.

لم يتمالك نبو آغا نفسه. رفع بندقيّة المارتين وتوجّه إلى رئيس المخفر. تراجع رئيس المخفر مع جماعة الجندرمة خطوة إلى الوراء لكنهم لم يخرجوا. صرخ نبو آغا بصوت جهوري:

- يا قليلي التربية. اذهبوا من هنا الآن. قلت لكم اذهبوا.

حمل عبد الرحيم أيضاً بندقيته وحمل على رئيس المخفر وجندرمته بشدّة أجبرتهم على الخروج من المجلس والتوجّه بلا توقف إلى المخفر.

كان الشيخ مذهولاً ممّا يجري. صمت هنيهة ثم صرخ:

- ما الذي يجري؟ لا تفعلوا ذلك. لا يمكن أن تُحلَّ القضايا هكذا.

غاب صوت الشيخ في باحة الدار مثل صرخة غريق غمرته الأمواج. خرج المريدون جميعاً. خرج أولئك المحكوم عليهم أيضاً. كانوا في غرفة أخرى، حملوا بنادقهم ثمّ تبعوا نبو آغا وعبد الرحيم شقيق الشيخ.

استمرّ الشيخ سعيد يصرخ ويناديهم دون أن يلتفتوا إليه:
- حمقى. حمقى. حمقى جداً.
كان صراخه سدّاً لم يضبط أمواج الغضب الذي جاش في قلوب أولئك الرجال.
بقي هو ومنديله وحيدين في المجلس. نظر إلى الشمس الساطعة وسط المنديل بحزن وقال بحسرة:
- لقد أشرقت قبل الأوان أيّتها الشمس.
ثم لفّ جبته على جسمه وخرج من البيت مسرعاً.
حين رأى سائسه شركس الزازي واقفاً عند الباب باحترام، تنفّس الصعداء. انفرجت أساريره وقال بنبرة هادئة تغلفها الدهشة:
- شركس؟ ظننت أنك ذهبت معهم.
- كيف سأتركك وحيداً يا مولاي؟ روحي فداك.
واتّجه الاثنان تحت نور شمس باهتة صوب المسجد.

***

مدّ الشيخ رقبته من خلال الحلقة التي ضاقت عليه وألقى نظرة على جسد سائسه شركس الزازي. كان رأسه مائلاً إلى جهة الشيخ تهزّه ريح حزينة.
تألّمت رقبة الشيخ. أراد أن يسعل فخرجت من حنجرته المحاصرة حشرجة تشبه الأنين. فجأة تقدّم إليه جندي ومدّ يده إلى الحبل. هيّأ الشيخ سؤاله المؤجّل إلى الله وأراد أن يطرحه

على السماء السوداء مثل آنية تراكم عليها السخام. وكم دُهش حين رأى الجنديّ يرخي الحلقة الملتفّة على عنقه قليلاً. تُرى ما الذي يجري؟ أيمكن أن تحدث معجزة ويكون أمر بعدم إعدامه صدَر من أنقرة؟

أيمكن أن يكون كلّ ما شاهده حتى الآن حلماً أو خيالاً؟ أيتراءى له ذلك؟ ربّما حلقة الحبل التي ضاقت على رقبته سبّبت له تهيّؤات كثيرة أم ربّما بدأت روحه تطلع وما يشاهده الآن سببه طلوع الروح؟ ضاع سؤاله المؤجّل إلى الله بين أسئلة كثيرة اختلجت في قلبه التائه المحطم.

أخرج الجندي بحركة سريعة رأسه من الحلقة وألبسه ثوب الإعدام الأبيض وعاد ليلقي الحبل على رقبته ثمّ تراجع إلى الخلف.

تسرّبت كلّ المرارة التي كانت متجمّعة في فمه إلى حلقه. نسي قليلاً ظمأه المسعور.

صاح أحد الضبّاط بفظاظة:

- هيّا لفّ على رأسه ذلك القماش سريعاً.

انحنى الجندي الصامت والتقط عمامة الشيخ المرميّة على الأرض، لفّها على عجل ووضعها كيفما اتّفق على رأس الشيخ. ضحك الجندرمة والضبّاط المجتمعون هناك. أشاروا بأصابعهم إلى ثوب الإعدام الذي ألبسوه قبل قليل وقال أحدهم:

- انظر. انظر يا شيخ أفندي الثوب على مقاسك تماماً.

سها عنهم الشيخ. كان بخياله في مسجد بيران. تكبيرات أهل بيران حين كان الشيخ وسائسه شركس الزازي يمرّان بهم منعته من سماع سخريات الضبّاط والجندرمة.

لاحق نبو آغا وعبد الرحيم وأولئك الهاربون من أحكام الدولة، رئيسَ المخفر وعناصر الجندرمة المرعوبين الذين كانوا معه. خرج الجميع لمشاهدة ذلك المشهد وتشجيع المهاجمين:

- اضربوهم بأبي أنتم وأمّي.
- أطلق عليه الرصاص. أطلق الرصاص على جبهته ذلك الحرام النذل.
- فلتصب رئيس المخفر عديم الأدب ذاك. اطرحه أرضاً.

صرخ الشيخ بصوت مرتفع ونادى:

- عودوا أيّها الحمقى. لقد خطفتم جوزتي فلا تهدموا القبّة. تعالوا أيّها المتهوّرون. تعالوا ولا تجهضوها.

ضاع صوت الشيخ ونداؤه العجوز في خضمّ لعلعة الرصاص وصوت الطلقات وصراخ الناس.

امتدّ ظله في ذلك الأصيل. لم يكن أحد ليهتمّ بظلّ الشيخ سوى السائس. كانت الشمس تغرب قلقة خائفة. صبغ ضوؤها الأفقَ البردان بلون الحناء. فجأة صرخ شركس الزازي:

- مولاي.
- ماذا دهاك يا ولدي؟ خيراً؟
- ظلّك يا مولاي. ظلّك. لونه أصفر.

التفت الشيخ. رأى ظلّه مثل خريف قتيل مطروح على بقع الثلج بجانب جدار المسجد. غطّت وجهَه الذابل سحابةُ حزن. قال بنبرة تشبه الأنين:

- هذا ظل روحي. لقد ذبلت روحي اليوم يا شركس. إنه خريف الروح يا ولدي.

ودلف إلى فناء المسجد.

جلس الشيخ سعيد في المحراب. ولّى وجهه شطر الجنوب ثم أغمض عينيه. تبعه السائس ثم جلس خلفه دون أن يحدث أيّ جلبة. ودون أن يلتفت الشيخ قال:

- أسرج يا شركس فرسي الكميت. سنغادر الليلة.

ما إن حلّ الظلام حتى انتهت معركة المحكوم عليهم وعناصر المخفر. أفرج عن السجناء وزغردت النسوة. اقتربت من المسجد جلبة كبيرة تخالطها التكبيرات.

كان نبو آغا وعبد الرحيم وأولئك المحكوم عليهم يمشون يتقدّمهم عناصر المخفر مقيّدي الأيدي بينما تُركت جثث العديد من العساكر مرميّة عند المخفر.

خرج الشيخ إلى باب المسجد. كان الظلام قد أرخى سدوله فلم يعد يميّز بين الوجوه. توجّه إلى الحشد وقال:

- لقد أشرقت باكراً وستغيب باكراً.

***

كانت الشمس قد أشرقت لتوّها. لمعت في ضوئها ثلوج وادي

هيني وثلوج قمم الجبال. لمعت في نور تلك الشمس جبّة الشيخ أيضاً.

يمّم الشيخ وجهه شطر داراهيني، تمنّى أن تنطفئ النار التي اشتعلت في بيران سريعاً دون أن تمتدّ إلى مناطق أخرى.

- يشعل المجنون ناراً لا يقوى ألف عاقل على إطفائها.

قال وهو ينظر إلى الشمس الطالعة من جهة ميافارقين.

كان شركس ممسكاً بلجام فرسه وكان الفرسان والمريدون يمشون في الخلف صامتين هادئين. كانت حوافر خيلهم تصطدم بربيع قتيل تحت الثلوج.

النار التي اشتعلت في بيران أدفأت ما حولها وأضاءته. هيني، دارا هيني، ألازغ، خنوس، معدن، كمكم، أرغاني، ليجه، جرموك وملاطية مع عشرات القرى كلها دخلت حلقة الرقص الناريّة. ذابت الثلوج تحت أقدام المريدين والقرويين. هبّ كلّ واحد من جهته وبأمر من آغا القرية وأعيانها وألقى القبض على موظفي الدولة والجاويشية والقائمقامية والجنود. سيطروا على مباني التلغراف والمخافر ورفعوا فوقها رايات خضراء تلمع في وسطها شمس صفراء مثل ظلّ الشيخ الذي صار يتبعه على الثلج أينما سار.

بدأ الشيخ وهو في داراهيني يرسل الرسائل. كان يوقعها باسم أمير المجاهدين محمد سعيد النقشبندي. أرسل رسائل كثيرة إلى الشيوخ والآغوات والبيكوات وحتى إلى أولئك الذين آخوا رئيس الجمهورية قبل عدّة سنوات.

أمر الشيخ بإطلاق سراح الأسرى، وضع في يد كلّ واحد منهم رسالة وأرسلها إلى شيخ عشيرة الأسير. مئات الأسرى، حملوا معهم مئات الرسائل وانتظر الشيخ مئات الساعات ردودها التي لم تأت أبداً.

بعض الآغوات والبيكوات الذين سمّرهم التردّد إلى مضافاتهم وقصورهم أرسلوا مبعوثين سرّيين إلى الشيخ وحملوهم التالي:

- إن أخذتم دياربكر فسنقوم معكم.

عقد الشيخ في جولته من خنوس حتى بيران الصلح بين عشائر متخاصمة كثيرة. دفع ديات كثيرة واتفق مع تلك العشائر على الانتفاضة.

ومع أنه كان يدرك أن ما يفعله يشبه خبز الذرة لن يلبث أن يتفتت، فقد بنى جسوراً كثيرة بين العشائر المتنازعة لتعبر عليها قطعان الأمل إلى ذلك الربيع الذي أتى باكراً.

***

- هذه المشنقة التي سأتدلى منها بعد قليل هي الجسر الذي سيوصلني إلى الله تعالى.

بلع الشيخ ريقه المرّ وقال لنفسه.

لم يكن الشيخ يعرف كم من الدقائق بقي ليركل الجندي الواقف بجانبه الكرسي الذي يقف عليه فيتدلى جسده كالآخرين.

أسرج فرسَ سؤاله المؤجّل إلى الله وكاد يطلقه في صحراء تلك السماء التي غابت عنها النجوم لكنّه تمالك نفسه وسكت ثم أطلق صقر خياله ليحوم حول أيّامه الأخيرة في الربيع الماضي التي صارت الآن مثل القطا تروح وتجيء أمام بحيرتي عينيه.

في داراهيني وُضعت أسس حكومة الثورة. استمرّ أمير المجاهدين الشيخ سعيد يرسل الرسائل إلى قادة الجبهات. كان كلما وصل إلى بقعة جديدة ينزل عن فرسه ويصلي لله شكراً.

بدأت آماله التي تحطمت في بيران مثل آنية فخّار تنجبر بفضل الانتصارات المتتالية.

لقد حان الوقت ليتوجّه إلى دياربكر.

- دياربكر. ستشهد المعركة الأخيرة.

هكذا قال في قرية هيني لعمر آغا فارو ورفاقه الآخرين.

توجّه قادة الجبهات إلى دياربكر يرافقهم الآغوات والبيكوات مع الآلاف من أتباعهم. في الطريق، جاء عمر آغا فارو إلى الشيخ، أخرج غليونه، دخن آخر نفس من تبغه المشتعل ونفخ فوق رأسه سحابة كبيرة من الدخان وقال بثقة:

- مولاي. أقسم إنني لن أدخّن إلى أن ندخل دياربكر.

وسحب عود الغليون ليسلمه للشيخ بينما نثر ما بقي من تبغ ورماد في رأس الغليون ثم وضعه في جيبه وأعطى بقية التبغ في كيسه إلى شركس الزازي.

***

- أشعل لي سيجارة يا شركس.

قبيل غروب الشمس قال الشيخ سعيد لسائسه شركس الزازي بعد أن قرأ رسالة جاءته من الشيخ شريف قائد جبهة ألازغ.

فتح شركس كيس التبغ الذي منحه إيّاه عمر آغا فارو ولفّ سيجارة مدّها للشيخ. سرعان ما غاب وجهه في سحابة من الدخان الكثيف.

لاحظ عمر آغا فارو تعكّر مزاج الشيخ، وكان يتهيّأ للذهاب إلى جبهة شرقي دجلة، فاقترب منه وقال له:

- مولاي ما الأمر؟ ماذا كتب الشيخ شريف؟

تحدث الشيخ شريف في رسالته عن محاولاته لإقناع سيد رضا. كتب أنه تواصل مع حسن خيري، نائب ديرسم في مجلس النواب بأنقرة، وطلب منه أن يقنع سيد رضا بالانتفاض وقطع الطريق على القوات القادمة من جهة سيواس ثم يحتل أرزنجان. كتب الشيخ شريف أن النائب حسن خيري رفض هذه المهمّة واكتفى بأن اتصل تلفونياً ببلدة هوزات وقال: لا تفعلوا شيئاً حتى نأتي نحن.

الفارس الذي أرسله الشيخ شريف للشيخ سعيد كان قد جلب معه بضع صفحات من جرائد "وقت" و"حاكميتي ملليه".

اختصر الشيخ سعيد ما ورد في الرسالة لعمر آغا ثم أعطى تلك الصفحات إلى كاتبه فهمي بلال من ليجه الذي تصفحها

سريعاً وقال:
- مولاي. ليس في هذه الجرائد، حاشا مقامكم، سوى الكذب.
ثمّ وضع إصبعه على عنوان بالخط العريض وقال:
- أف أف أف... اسمعوا هذه الكذبة! يقولون إن الإنكليز يساندون حركة الشيخ.
ثم تنقل بإصبعه بين عناوين كثيرة وصار يقول:
- تعالوا إلى هذه العجيبة: مولاي، حاشا جنابكم، كتبوا أن شيخاً يزيدياً يقود الحركة وهو يريد نقض دين الإسلام. أمّا في هذه الجريدة، أواه يا للكذب، فقد كتبوا هنا: الروس يدعمونه. يا للهول.
بدا الشيخ في تلك اللحظة جبلاً يلفّه الضباب. فكّر من تحت سحابة الدخان وهو ينظر بتأمّل إلى سور مدينة دياربكر. أخيراً قال دون أن ينظر إلى أحد:
- إن ما أخشاه هو أن تغلب أكاذيبهم حقيقتنا لا قدَّر الله.
ثمّ رمى لفافة التبغ وأطفأها بحذائه وطفق يغزل بمغزل خياله خيوط بساط امتدّ من أمام قدميه حتى داخل مدينة دياربكر.

***

آلمته الحصاة الصغيرة داخل حذائه. لكنه لم يستطع أن يتحرّك. كان الكرسي الصغير يتّسع فقط لقدميه يضعهما عليه ملتصقتين. فرك أصابع قدمه الجريحة بعضها ببعض ثم ألقى نظرة كلها ضراعة وشكوى وغضب على السماء القاسية

السوداء. ملأ سؤالُه المؤجَّل فمَه لكنّه صمت مرّة أخرى حين رأى أنّه لا تزال هناك فسحة للحياة وأن قلبه لا يزال ينبض، ما زالت عيناه تريان اللفافات المشتعلة بأيدي الجنود المتحلقين حول مشنقته وأن أنسام دياربكر ما زالت تنعش رئتيه في هذا السحر.

ألقى خياله بين أمواج ذكريات الربيع الفائت مثل سبّاح ماهر. اصفرّ ظله في ذلك الربيع الذي انبسط أمامه الآن مثل صفحات جريدة.

تغيّرت الحكومة في أنقرة. تدفّق الجنود من كلّ حدب وصوب. حلقت طائرات آلباتروس المزدوجة الأجنحة في الأعالي وصارت تلقي سمومها من النار والحديد على الثائرين.

نصب الجيشُ المدافع والرشاشات الثقيلة على سور دياربكر فمنعوا أيّ تقدم. في الليل كان عناصر الجيش يلقون القنابل المضيئة فتكشف المكان وتسهّل للجنود إطلاق النار على المتسللين فتقتل الكثير منهم وتجرح آخرين يعودون بجراحهم إلى خنادقهم ليصرخوا ويشقوا عنان سماء دياربكر الخرساء حين تبرد الجراح.

مضت عدّة أيّام على حصار دياربكر دون أن يرفع المتحصّنون داخل أسوارها الرايات البيضاء. أخيراً أصدر الشيخ سعيد أمر الهجوم فهاجمت قوّاته تحت رذاذ خفيف من المطر حتى وصلت إلى السور. تسلق قسم من المغيرين

السور البازلتي الشاهق لكن الجنود المتحصنين كانوا لهم بالمرصاد فأصابوا العديد وأردوهم من فوق السور. سقط بعض المهاجمين خارج السور بينما سقط آخرون داخله.

أزهقت المدافع الثقيلة المنصوبة فوق باب الرها وباب ماردين وباب الجبل أرواح كثير من المهاجمين كأنها مناجل في أيدي حصادين.

- مولاي نحن أيضاً نملك سبعة مدافع استولينا عليها. فلنستعملها وإلّا صدئت تحت المطر.

قال أحد الشباب من أتباع الشيخ ممن قاتلوا في جبهة ساري قاميش. هزّ الشيخ رأسه وأجاب:

- لا. لا يمكن. لو لم يكن لدينا هناك أهل في الداخل لقصفنا بالمدفعية.

- مولاي لا يمكن أن تغلب بنادقنا هذه المدافع والرشاشات الثقيلة. هذا مبدأ من مبادئ العلوم الحربية يا شيخي.

كان بالقرب منهما آغا ينظر من خلال ناظور ويسترق السمع إلى حديث الشيخ وذلك الشاب. تمالك الآغا نفسه إلى حين لفظ الشاب مفردة العلم. وضع الآغا الناظور واتجه إليه ثم خاطبه بفظاظة:

- ألا تملك ذرّة من الأدب يا ولد؟ جناب الشيخ يقول لا يمكن، هذا يعني أنه لا يمكن. ما النصر إلّا من عند الله وليس من عند المدافع. هلا قلت لي من أيّ عشيرة أنت؟ ألست من ليجه؟ هيه؟

حاول الشيخ أن يوفق بين الآغا وذلك الشاب المقاتل فقال:
- لا شك في أن النصر من عند الله لكنّ للمدافع أيضاً دوراً بارزاً في الحروب. لكن يجب أن نعلم أن قذائف مدفعيتنا لو ذهبت أبعد قليلاً لوقعت فوق رؤوس النساء والأطفال. سنرتكب أعمال قتل بلا سبب. لا يجوز.
حمل الشاب بندقيته وابتعد عن مجلس الشيخ. رمقه الآغا صاحب الناظور ولاحقه بنظرات ملؤها السخرية ثم ناداه:
- إيّاك أن تتحدّث مرّة أخرى عن العلم وما إلى ذلك. يكفينا القرآن وجناب الشيخ.
ثمّ التفت إلى الشيخ وقال فرحاً كمن فتح إحدى القلاع:
- أليس كذلك يا جناب الشيخ؟
أزاح الشيخ قطرات المطر العالقة بلحيته بمشطه البنّي وتنقل ببصره بين رأس الآغا وسور دياربكر البازلتي ولم يردّ عليه.

***

كان مقاتلو الشيخ يمسحون البلل عن بنادقهم بخرق ملوثة وهم داخل الخنادق بينما انشغل قسم منهم بتنظيف السبطانات وآخرون بالنظر من خلال الشعيرة والتسديد على الأهداف ثم إطلاق النار على الجنود المتخندقين خلف مدافعهم الرشاشة الثقيلة.
كان الهجوم الذي شنّه عمر آغا فارو من الغرب وحقي بيك الليجي من الشرق قد فشل وأصيب المقاتلون بالقنوط وفترت

همّتهم.
ذات ليلة هاجم قسم من المقاتلين وأغلبيتهم من ليجه المدينة فتمكنوا من قتل عدد من الجنود واقتحام الأسوار والوصول إلى مسجد قورشونلو وجلبوا منه عدداً من الأسلحة والذخائر. من هناك اتجهوا إلى كانيا شيران ليطلقوا سراح المساجين ويقوموا بتسليحهم.
وفجأة فُتحت أمامهم أبواب الجحيم ولعلعت البنادق واختلط الحابل بالنابل. سُمع صوت الرصاص من جميع الجهات وانتعشت الآمال وظنّ البعض من سكان المدينة أن الشيخ ومقاتليه قد دخلوا المدينة وسيطروا عليها.
صعد مؤذن مسجد علي باشا المئذنة وبدأ يؤذن وينادي:
- الله أكبر الله أكبر. هيّا يا أهل المدينة. لقد ارتفعت راية الإسلام. انهضوا أيّها المسلمون. لقد زالت دولة الكفر. انهارت دولة الشرك وخفقت رايات الإسلام. أيّها الكرد انهضوووووووا.
من الخلف، وصل إليه جنديان وأمسك أحدهما بيده التي كانت على أذنه فقيّدها باليد الأخرى ثم ركله الإثنان حتى أنزلاه إلى الأسفل.
فشلت الغارة.
لم ينجُ منها سوى مقاتل واحد تمكن من الهرب عبر ثغرة ووصل إلى صفوف القوات المحاصِرة في حالة يرثى لها. حين رآه الشيخ بادره بالسؤال:

- ما الذي جرى يا هذا؟
- قمنا بالغارة يا مولاي.
- ومن أنتم؟
- أنا وحوالى ستّين من المقاتلين دخلنا المدينة من جهة باب الرها.
- ومن أمركم بذلك؟
- لا أدري يا مولاي. أحدهم قال فلنقتحم المدينة فذهبنا.
- أحدهم؟
- لا أدري يا مولاي. لكن لم يبق منّا أحد. نجوت وحدي. كان معي شخص آخر لا أدري أين اختفى.

بعد بضعة أيّام قدمت جحافل الجنود من الجنوب من جهة ماردين. سمح الفرنسيّون في سوريا جنوبي سكة الحديد لقطع الجيش التاسع بالقدوم من الأناضول إلى ماردين بالقطار.

كان الشيخ وأركان حربه يأملون السيطرة على دياربكر فتسهل عليهم السيطرة على ماردين أيضاً وهذا ما يجعلهم جيراناً لفرنسا على حدودها السورية وبالتالي سيصبحون جيران أوروبا وسيصل صدى قضيّتهم إلى عصبة الأمم وإلى تلك المدن التي تتقلب فيها أقدار الشعوب على نار الآمال مثل رؤوس الكباش.

مضى القطار الذي يحمل في عرباته جنود الجيش التاسع المتجهين للقتال بالقرب من بلدات صغيرة. كان الأطفال الصغار يلوّحون بأيديهم للجنود ويرمونهم بورود لم يشمّوا هم

عبقها بعد. لم يكن أولئك الأطفال يعلمون أن الجنود ذاهبون ليجعلوا أبناء عمومتهم الأطفال أيتاماً شمالي سكة القطار.

***

نظر الشيخ الذي كانت عربات قطار الأحداث الماضية تهدر في خياله إلى تلك الأجساد المعلقة وقال لنفسه:

- تُرى كم طفلاً يتيماً ترك هؤلاء الشهداء وراءهم؟

تذكّر بناته وأبناءه العشرة، تذكّر أبناء إخوته، أبناء أخواته وأبناء أولئك الشيوخ والآغوات والمقاتلين الذين ثاروا معه. كان يعرف أن ابنه علي رضا واثنين آخرين من أبنائه قد نجوا ووصلوا إلى سمكو آغا. لكن أين الآخرون؟

غزت حرقة كبيرة أحشاءه واغرورقت عيناه بالدمع. آلمت الأجساد المتدلّية عينيه. كلّ جسد معلّق بدا مخرزاً يخرق بؤبؤ عينه. أطبق عينيه الدامعتين وقصفت رعود الذكريات في خياله.

***

في ذلك اليوم امتزج هزيم الرعد والبرق وصوت المطر مع صوت قصف المدفعية والطائرات وأزيز الرصاص. لم يستطع مقاتلو الشيخ الذين يحاصرون مدينة دياربكر إحراز أيّ تقدّم إلى الأمام. كان كلما وصل فريق منهم إلى مسافة قريبة من السور يسقطون صرعى. سقطت القنابل من السماء

على جموع المقاتلين المغيرين وشتّتتهم. أصيب الكثيرون بالجراج جراء شظايا تلك القنابل وأيضاً شظايا الحجارة التي كانت تسقط عليها تلك القنابل. كان المقاتلون يحتمون بصخور تتحوّل بفعل قصف الطائرات إلى قنابل تقتلهم بدل أن تحميهم.

لم يحسب الشيخ ورفاقه حساب أن تساعد فرنسا الأتراك. لذلك لم يهتمّوا بالجبهة الجنوبية خلال حصار دياربكر وتركوا جهة باب ماردين بدون قوات تقريباً. ومن تلك الجهة دخل الجيش التاسع بعد معارك عنيفة عبر جسر متحرّك من الزوارق إلى داخل المدينة، ما رفع كثيراً معنويات الجنود المحاصَرين.

ألقى الشيخ نظرة على السماء المنقوشة بالطائرات، ثم التفت إلى السور المدجّج بالمدفعية وأخيراً نظر إلى جهة باب ماردين وقال بانكسار شديد:

- آه يا فرنسا! ألم تكن كذبة سيفر كافية؟

أمر الشيخ مقاتليه الصائمين الذين كانوا في حالة يرثى لها أن ينسحبوا ويفكّوا الحصار عن دياربكر. كان المطر يهطل بغزارة على أولئك المقاتلين الجوعى، الظمأى، الذين لم يكونوا يرتدون سوى أسمال بالية وكلّ اثنين منهم ببندقية واحدة وبضع طلقات وقلوب كسيرة.

توجّه أولئك المقاتلون، الذين كانوا في معظمهم من المشاة، صوب الشمال. بين دقيقة وأختها كان أحد المقاتلين يعود خلفه ليأتي بحذائه الغائص في الطين.

- ماذا فعلت يا عبد الرحيم؟
قال الشيء في قلبه الذي يعتصره الألم ثمّ التفت إلى عمر آغا فارو وقال له:
- يبدو يا عمر آغا أنك ستبقى طويلاً بلا تدخين.
- لا يا مولاي. حتى لو بقي يوم واحد من عمري فسأذهب إلى داخل دياربكر وأنفخ سحباً من الدخان في سوق ملك باشا.
ردّ عمر آغا ثم أخرج رأس الغليون من جيبه ورماه بعنف على الطين. هرول غلامه بضع خطوات وأخرج الغليون من الطين ثمّ مسحه بسرواله وعاد.
ضحك الشيخ وقال للغلام:
- مرحى يا ولدي. أحسنت. لقد عرفت طباع الآغا.
ثمّ التفت مرّة أخرى إلى عمر آغا ورفاقه وقال:
- سأذهب قبلكم إلى هيني. أما أنتم فاتبعوا فهمي أفندي الليجي. هو رجل متعلم وذكيّ. أطيعوه ما أمركم.
وصل عمر آغا بفرسه إلى محاذاة الشيخ حتى لامس الركابُ الركابَ وقال بنبرة انزعاج:
- لماذا فهمي أفندي يا سيدي الشيخ؟ هو رجل لا عشيرة له. كيف سنتبعه؟
لم يجب الشيخ. قال في قلبه المعتصر ألماً:
- حمقى.
ثم نكز خاصرة فرسه الكميت وانطلق إلى هيني.

هناك انضمّ إليه عبد الرحيم ومقاتلوه. كانوا قد تلقوا هزيمة نكراء في أرغاني فانسحبوا منها إلى هيني.

حين انسحب الشيخ ومرافقوه من حصار دياربكر انفضّ رؤساء العشائر عنه وانضمّوا إلى القوات الحكومية. انشق أيضاً بعض الشيوخ والآغوات والبيكوات عن معسكر الشيخ.

في ألازغ كان بعض مقاتلي الشيخ قد بدأوا نهب المدينة وسوقها. حمَّلوا البغال ما نهبوه وأخذوها. كان بعض الآغوات أيضاً يشاركون وينهبون ما تقع عليه أيديهم من الدكاكين على صدى التكبيرات. نادى البعض:

- لا تفعلوا ذلك. إنّه حرام. لا يجوز.

- كيف لا يجوز؟ الشيخ سعيد بذاته أفتى بذلك.

- الفتوى ليست هكذا. الفتوى تتحدّث عن أموال حزب الشعب لا أموال الشعب البائس.

لكن من كان سيصغي إلى نداء العقل في تلك المعمعة؟ لا أحد سمع صوت الآخر في خضمّ طحن حبّات الجوز!

كانت الرايات الخضراء التي تتوسّطها شمس مشرقة بسبعين شعاعاً تذبل في أيديهم، كانت تلك الشمس تذبل كورقة خريف ثم تنطفئ لتسقط من الرايات.

- سنعود إلى داراهيني لنرى ماذا كتب الله لنا.

قال الشيخ لمن حوله من الشيوخ والأعيان الجالسين بصمت.

بدأ منذ تلك اللحظة يوقّع رسائله باسم خادم المجاهدين وصار يقول لنفسه:

- أمير من أنا؟ كلّ واحد يمشي في طريق ولا يلتفت إليّ. فلأكن خادماً لهم. جوزتي أيضاً لم تستقرّ على القبّة.
ضاقت عليه الأرض. لم يجد مُستقَرّاً أنّى يمّم وجهه. كانت الجيوش التركية تدفعه باتّجاه نهر مراد وتنصب له الفخاخ هنا وهناك. الجرائد التي كانت تصل إليه، حملت أخباراً محزنة عصرت قلبه. كانت تلك الجرائد تدّعي أن الفرنسيين والأرمن والإنكليز والإيطاليين يدعمونه. قال في نفسه بمرارة:
- ليته كان صحيحاً. لكان الذئب الأغبر الآن كسير الناب أسيراً بين يديّ.
تدفق الجنود الأتراك على جوليك وداراهيني وبالو بأعداد غفيرة.
ومع تدفق الجنود أقبل الربيع بالدفء إلا أن القلوب كانت قد بردت وفترت همم مقاتلي الشيخ.
أدرك الشيخ أنه فشل. كان الأمل ما زال معقوداً على النصر حتى شهر نيسان لكن الأخبار المتوالية جاءته من كلّ الجبهات تعلن الهزيمة والانكسار. أدرك أن التاريخ يُكتب الآن في أنقرة لا في دياربكر. هرب كثير من مقاتليه إلى الجبال. بقيت معه مجموعة حاولت بثّ الأمل بقدوم الربيع. لكنّه نظر بحزن بالغ إلى أخيه عبد الرحيم والشيخ شريف والشيخ عبد الله ملكان وقال لهم:
- أيّها الأصدقاء. لقد انتزعنا الربيع مثل أفعى من جحرها. والربيع الذي يُنتزع بالعنف ليس ربيعاً.

ثمّ نزع العمامة التي بلّلها مطر نيسان وعرّضها للشمس التي لم تكن تعلم وهي في عليائها شيئاً عن النار التي بدأت تخبو في قلبه.

***

كان ذلك في يوم ثلاثاء بهيج. نصب فيه الربيع خيمته الخضراء مثل منديل الشيخ في سهل موش. بدأت الثلوج في قمم جبال شرفدين تذوب على وقع أنغام ذهبيّة تنشدها الشمس.

صادف ذلك اليوم العشرين من رمضان. كان الشيخ ومرافقوه صائمين ظامئين ينتظرون الغروب ليفطروا. كانوا يمنّون النفس بالوصول إلى نهر مراد وهم مختبئون وراء صخور تطلّ على ضفّته:

- سنصل إلى النهر مع غروب الشمس. هناك سنشرب الماء ونتناول إفطارنا.

كانوا قد بدأوا مسيرهم من ساعة السحور ولفحت الشمس جباههم فعرقت وصاروا يتخيّلون الماء طيوراً تحوم فوقهم.

لم تروِ ظمأهم هبّات من النسيم البارد كانت تأتي من جهة بالو بين حين وآخر.

من بعيد لمحوا رجلاً قادماً نحوهم. حين اقترب منهم بدا أنه شيخ طاعن في السنّ محدودب الظهر يتوكّأ على عصا ويحمل على ظهره كشكولاً كأنّه أحد الدراويش السائحين. تقدّم شركس الزازي نحوه رافعاً بندقيته وهو يصيح:

ـ توقف أيها العجوز. من أنت؟
لم يتكلم العجوز. واصل سيره دون أن يأبه بالطلقات التحذيرية التي أطلقها شركس من فوق رأسه. أخرس الشيخ سعيد بإشارة منه بندقية سائسه.
كانت الدولة قد خصّصت ألف رشادي ذهبي جائزة لمن يلقي القبض على الشيخ. أذاعت الدولة في المساجد وفي كلّ مجلس أن من يسلم الشيخ حيّاً يحصل على ألف رشادي ومن يسلمه ميتاً يحصل على سبعمئة رشادي. عندما سمع الشيخ بهذه الجائزة ضحك وقال لمرافقيه المسلحين ساخراً:
ـ إذاً فحياتي لا تساوي إلا ثلاثمئة رشادي!
حين اقترب الرجل العجوز أكثر وضع المرافقون الآخرون للشيخ أصابعهم على الزناد. أصبح العجوز الآن على مسافة قريبة جداً. أنعم الشيخ سعيد فيه النظر ثم قال بسرور:
ـ هيه! هذا أنت ثانية يا خالص؟
لم يتكلم العجوز. وضع كشكوله فسُمعت خشخشة حبّات الجوز فيه ثم حدّق في الشيخ مليّاً.
ـ ألم تعرفني يا خالص؟ أنا سعيد. إلى أين تريد الذهاب؟
بكى العجوز حتى دمعت عيناه. مسح دموعه بباطن يده وقال:
ـ أنا قادم من بدليس ووجهتي هي جبال شرفدين. سأزرع هناك أشجار الجوز. لا يكفينا ما في حوزتنا من جوز.

جمع الشيخ عبد الله ملكان بعض حبّات الجوز التي تناثرت خارج الكشكول ثم سأله:

- ماذا يجري في بدليس؟ أتعرف شيئاً عن السجناء؟

- اليوم علقوا يوسف ضياء بيك وخالد بيك جبري ورفاقهما مثل أكياس جوز على المشانق. قبل يومين أصدرت محكمة الاستقلال حكم الإعدام بحقهم. ألم أقل لكم إن ما في حوزتنا من جوز لا يكفينا.

ثم خطف الجوزات التي جمعها الشيخ عبد الله ملكان بعنف وأعادها إلى الكشكول. أخيراً حمل عصاه ومضى صامتاً في اتّجاه النهر.

حزن الشيخ سعيد حين سمع خبر إعدام يوسف ضياء بيك وخالد بيك جبري ورفاقهما. ذهب إلى صخرة، فرد منديله الأخضر وذرف بعض الدموع. لاحظ الشيخ عبد الله ملكان اضطراب الشيخ فجاء إليه ورأى دمعه فقال:

- ما هذا؟ لا ينبغي للرجال أن يبكوا. لا وقت لدينا لنذرف الدموع اليوم.

- حتى الجبال تبكي على رجال مثل هؤلاء يا شيخ عبد الله.

ردّ الشيخ سعيد على صديقه وهو يجفّف دمعه.

كان البينباشي قاسم بيك، عديل الشيخ سعيد من عشيرة الجبرانلي الكرديّة، وابن عم خالد بيك جبري، على علم بتحرّكات الشيخ. كان يدري أنّ عديله الشيخ ومرافقيه من الشيوخ والأعيان والعساكر يتجهون إلى الحدود الشرقية.

وكان يأتيهم كلّ مرّة في مكان جديد ويحضر لهم الزاد والماء. يغيب فترة من الوقت ثم يظهر ليصل إليهم حتى قال أحد الآغوات للشيخ سعيد:

- يا شيخ أفندي، صحيح أنه عديلك لكنني والله أرتاب في حركاته. الأسئلة التي يطرحها علينا مشبوهة.

طمأنه الشيخ وقال:

- لا رادّ لقضاء الله. والله يفعل ما يريد فماذا بإمكانه أن يفعل؟ إنه ينقل إلينا أخبار العدوّ وتحرّكات قوّاته ويعلمنا أين وصلوا وأين هم. تستطيع أن تعتبره رائداً لنا في مسيرنا.

انقطع الشيخ ورفاقه عن بقيّة المقاتلين. كان جيش الدولة قد شتّتهم فصارت كلّ فرقة في مكان. تفرّقت قوات الشيخ في الجبال والأودية والشعاب المنتشرة هناك.

وفي ذلك اليوم الدافئ من نيسان ازدادت حركة قاسم بيك. اشتبه فيه الجميع وأخبروا الشيخ بذلك وقالوا له إنّه يتربّص بنا شرّاً. أراد الشيخ نزولاً عند رغبة رفاقه أن يبتعد عن المكان فسأل قاسم بيك:

- أتعرف أين هم رفاقنا فلان وفلان وفلان؟

- كيف لا؟ إنهم الآن في كمكم وربما هم في الطريق إليها. لكن لا شك في أنهم قطعوا الآن جسر عبد الرحمن باشا.

ثم التفت إلى رفاق الشيخ من الآغوات والشيوخ وقال لهم:

- انطلقوا الآن وستكونون مع غروب الشمس عند الجسر. ستفطرون هناك وتشربون الماء الزلال. هاكم هذه التمرات

أيضاً افطروا عليها وادعوا لي. إنّها من تمر البصرة.
وألقى كيساً مليئاً بالتمر على ظهر أحد البغال ثمّ وضع يديه في جيبيه وولّاهم ظهره ومضى.

***

الجندي الذي ألبس الشيخ سعيد ثوب الإعدام الأبيض الذي لا كمّين له، وضع يديه في جيبي بنطلونه العسكري ومشى تماماً كما وضع قاسم بيك يديه في جيبيه ومشى في ذلك اليوم من نيسان الماضي. أطلق الشيخ تنهيدة عميقة. ذهب بخياله إلى عصر ذلك اليوم حيث كان هو ورفاقه يسيرون صوب جسر عبد الرحمن باشا على نهر مراد جائعين ظامئين.
كانت ظلالهم تمتدّ على الأرض طويلة باتّجاه بحيرة وان. حين حانت من شركس الزازي وهو يمسك بلجام فرس الشيخ التفاتة إلى الجهة اليمنى صرخ:
- مولاي، ما هذه العجيبة؟
سأل الشيخ الذي كانت الأنسام الآتية من جهة بالو تحاول إطفاء ظمئه:
- ما الأمر يا ولدي؟ ماذا هنا؟
- ظلك يا مولاي. ظلك. لا ظل لك.
نظر الشيخ إلى الأسفل فلم يجد سوى ظلّ فرسه الكميت. تنهّد وقال:
- يا شركس أتعرف ما هذا؟

ودون أن ينتظر جواباً من سائسه قال:

- الظلّ علامة وجود الأشياء. إن كنت موجوداً فلك ظلّ وإن كنت معدوماً فلا ظلّ لك. أنا لست موجوداً الآن فكيف سيكون لي ظلّ يا ولدي؟

ثم تلا من سورة الفرقان: {ألم تَرَ إلى ربِّك كيفَ مَدَّ الظِلَّ ولو شاءَ لجعَلَهُ ساكناً}.

أطلق بعدما أنهى قراءة الآية تنهيدة طويلة مثل ظلّ سائسه وقال:

- الشمس هي التي ترسم ظلاً لكلّ محسوس. إن غابت الشمس تغيب الظلال.

فتح السائس فمه مشدوهاً وألقى نظرة إلى الشمس الغاربة في جهة بالو ثمّ نظر إلى الشيخ والأسئلة تمدّ ظلالها على وجهه.

ابتسم الشيخ بحزن وقال:

- لا شمس إلّا تلك التي تشرق في القلوب. شمس السماء تمنح نورها لكفّار أنقرة أيضاً. إنّ شمس القلوب لا تشرق لدى كلّ الناس. وأمّا شمس قلبي فقد غربت يا شركس.

ثمّ أخرج منديله من تحت حزامه وبسطه تحت نور الشمس مثل حمامة. بُهت شركس الزازي. تسمّر في مكانه وصار يحدّق في منديل الشيخ. كان منديلاً أسود مثل حقل قمح نهبته النيران في الصيف، كان أسود مثل الساعة الأخيرة من الليل.

أعاد الشيخ المنديل إلى جيبه وقال متحسّراً:

- في بيران، حيث نصب القدر فخاخه أمام قدمي، غربت شمس قلبي.

واصل شركس الزازي سيره صامتاً لكنّه بقي يحدّق بخوف في ظلّ فرس الشيخ.

اقترب الركب من نهر مراد فلاح لهم جسر عبد الرحمن باشا من بعيد مثل أحلام حجريّة تتراءى للنهر الناعس. فجأة صرخ الآغا الذي أبدى قبل قليل ريبته في تصرّفات البينباشي قاسم بيك:

- انتبهوا يا جماعة! هذه التمرات مصيدة لنا. حذار أن تلقوا نواها إذا أكلتموها.

ثمّ نكز خاصرة حصانه وواصل سيره. ضحك الشيخ شريف الذي كان يمضي إلى تلك اللحظة صامتاً بجانب الشيخ عبد الله ملكان وردّ عليه:

- لا تخف ولا تهتمّ. لقد بلغ بنا الجوع مبلغاً يجعلنا نأكل التمر مع النوى.

مالت الشمس إلى الغروب حين وصل الشيخ ومرافقوه إلى الجسر. لم يكن ثمّة من صوت سوى خرير النهر. حتى الطيور كانت قد دخلت أوكارها وهجعت.

جفلت فرس الشيخ حين صدرت خشخشة عند حوافرها. خفض السائس شركس الزازي رأسه ودقّق النظر فلمح كيس خالص البدليسي مرميّاً هناك. رفع رأسه وقال:

- مولاي ما من شيء هناك سوى كيس الجوز الذي كان يحمله الرجل العجوز.

- جوز؟

قال الشيخ ونزل عن فرسه. نزل جميع من كان يرافقه واتجهوا إليه.

- إنه الكيس نفسه.

قال أحدهم بخوف. فردّ عليه آخر:

- لكنّ كلّ الحبّات بلا لبّ. يبدو أن أحداً أكل اللب ورمى القشر.

دار شركس حول الفرس ثم حمل شيئاً من الأرض وقال:

- ظرف رصاصة فارغ.

- هاته.

قال أحد المسلحين وهو يأخذ الظرف الفارغ من يده ويقلّبه بين أصابعه. دقق أسفل الظرف، شم فوهته ثم قال:

- هذا ظرف طلقة بندقية مانليشر. أعرفه من طوله ونحافته وشدّة صفرته.

شمّ فوهة الظرف مرّة أخرى وقال بخوف:

- إنّه حديث. الرصاصة أطلقت حديثاً.

طلب الشيخ من بعض المسلحين أن يقتفوا آثار الدم. لقد أدرك أن رفيقه القديم الذي جُنّ لرؤية الملا سليم الهيزاني مشنوقاً على باب القنصليّة الروسيّة في بدليس قد قتل. لم تمض دقائق حتى صرخ أحد المسلحين:

- مولاي لقد عثرت على بقعة دم.

وأقبل يسرع صوب الشيخ وبيده قبّعة زرقاء مثقوبة عليها آثار الدم.

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال الشيخ ثم أسرع مع رفاقه فامتطوا جيادهم وساروا إلى الجسر الذي لم يعد يبعد عنهم إلّا خطوات قلائل.

قبل أن يعبروا الجسر نزلوا عن ظهور الخيل من جديد وملأوا أباريقهم من ماء النهر ثم ساروا في رتل وسط الجسر. كان كلّ واحد قد أحضر تمرة ليفطر عليها. نظر الشيخ إلى الغرب فرأى الشمس تختفي وراء الأفق. أمّا جبل شرفدين المنتصب أمامهم بقمّته الثلجية فقد بدا مثل شيخ غسل عمامته بالزعفران. ندّت عن الشيخ آهة وهو لا يزال يحدّق في الشمس وقال في نفسه:

- هذه شمس انتفاضتي. إنّها تغرب.

ونادى سائسه شركس ليرفع أذان المغرب. سأل شركس:

- أين القبلة يا مولاي؟

- خذ سمت دياربكر. القبلة هناك.

حين التفت شركس إلى القبلة ووضع يده على أذنه ليرفع الأذان لمحت عيناه جثة خالص عند ضفّة النهر. كانت الجثّة مرميّة على وجهها تحت الجسر. وبدل أن يرفع شركس الأذان صرخ:

- مولاي. ها هو العجوز مقتولاً في النهر.

خفض الشيخ رأسه لينظر أسفل الجسر حيث أشار سائسه. في تلك اللحظة بالذات سمع هاتفاً من جهة الجثة. هاتفاً كان قد سمعه قبل عشرات السنين أيضاً ذات شروق شمس في يوم ربيعي. كان الصوت مألوفاً، مليئاً بالعتاب:

- يا سعيد ألم أحذرك من عبور هذا الجسر؟

اختلط ذلك الهاتف بصخب النهر. وفجأة ظهرت مجموعتان من الجنود الأتراك المسلحين ببنادق مانليشر الإنكليزية. سدّت المجموعتان طرفي الجسر وحاصرتا الشيخ ورفاقه الصائمين.

رمى قسم من مرافقي الشيخ التمرات في النهر متجهين إلى الجهة الشمالية بينما رمى الآخرون التمرات في أفواههم متجهين إلى الجهة الجنوبية فيما بقي الشيخ وآخرون في منتصف الجسر.

مرّت بضع ثوان على المشهد دون أن يصدّق الشيخ ما تراه عيناه. لكنه حين سمع إطلاق النار أدرك أنه وقع في كمين وأنه لا منفذ لهم سوى أمواج نهر مراد وسماء أدارت ظهرها له ولرفاقه.

***

حين ابتعد الجندي الذي وضع رأس الشيخ في الحبل قبل دقيقتين، بدا ظهره مثل تلك السماء التي بدأ الظلام يحلّ فيها ذلك اليوم على الجسر. تناهى إلى مسامع الشيخ صوت ضابط

قال بالتركيّة بنبرة فظة:

- ماذا تنتظر أنت؟ هيّا أسرع. لقد صارت الساعة الثانية ليلاً.

التفت الجندي وتوجّه مرّة أخرى إلى الشيخ ليسحب الكرسي من تحت قدميه.

هيّأ الشيخ سؤاله المؤجّل إلى الله وبحث عن كلمات تليق بتلك اللحظة لكنّه تذكّر وجه عديله قاسم بيك. ألقى وجه قاسم بيك حجاباً بين الله وبين سؤاله.

خلال إطلاق الرصاص كان قاسم بيك ينادي:

- ألا يكفي يا شيخ؟ إلى أين تريد أن تمضي؟ تعال. تعال إلى عدالة الدولة.

كانت القوّة التي طوّقتهم ضخمة. هجمت كالجراد. لم تعد البنادق التي كانت في أيدي مرافقي الشيخ، وبعضهم سقط جريحاً، تفيد في شيء. حاصرهم الجنود الترك بالبنادق والحراب. نظر الشيخ في عيني قاسم بيك وقال له:

- يا قاسم يا ابن سليمان. إنّ ألف قطعة ذهب التي ستحصل عليها مكافأة لك على الوشاية بي ستُصرف. المال سينفد يا قاسم بيك لكن هل ستنفد لعنات الأحفاد؟

جمع بعض الجنود القرب وأباريق الفخار التي أخذوها من الشيخ ورفاقه ورموها في النهر. لمعت بعض النجوم في صدر سماء لم يحضنها الليل بعد ورمقت بحزن أولئك الأسرى الذين يُساقون باتّجاه كمكم.

في اليوم التالي توقف ركب الأسرى قبل الوصول إلى كمكم فصرخ أحد الضبّاط:

- أين المصوّر؟ كدنا ننسى هذه اللحظة. تعال سريعاً لتصوّر لقطات للذكرى وللصحافة. تعال صور هؤلاء الدجّالين العصاة.

الشيخ سعيد في المنتصف، الشيخ شريف وشيخان آخران جالسان بجانبه. توجّه الجميع إلى آلة التصوير التي كانت منصوبة أمامهم.

كان الضبّاط والجنود يحيطون بهم وقوفاً على شكل قوس. مشط قاسم بيك شاربيه بمشط الشيخ البنّي ووضع خاتم الشيخ في أحد أصابعه ثم مسح عرقه بالمنديل الأخضر الذي سلبوه من الشيخ لحظة اعتقاله. أخيراً مال بطربوشه قليلاً ثم أسرع ليقف في الأمام نافخاً صدره مثل طائر حجل. قال للمصوّر وهو يرخي يديه:

- صوّرني معهم.

طار سرب من طيور الحجل من تحت سترة قاسم بيك[24].

[24] طائر الحجل رمز شهير للخيانة في الموروث الكردي.

***

- وقع الحجل في الشرَك.

مع صوت هدير المطابع، دارت تلك الجملة في نصوص البرقيّات التي صدرت من كلّ مكان إلى كلّ مكان.

في كلّ مركز تلغراف ألقت تلك الجملة بظلالها الثقيلة على كلّ شيء. تلك الجملة القصيرة القاسية التي ذبحت كسكّينٍ تلك الثورة القصيرة.

سيق الشيخ ورفاقه من كمكم، كما سيق سيد عبد القادر وابنه وبعضٌ من رفاقهما من إسطنبول، باتجاه دياربكر. ساقوهم تحت ظلال الحراب في ذلك الربيع الذي لم يستطع أن يظلّل آمالهم. كانت لوزان ضيفة دياربكر، وأيّ ضيفة؟ ثقيلة الظلّ كانت. أتت بالمشانق والموت، بالأصفاد والزنازين، وبحيل ومراوغات ودسائس مخفيّة تحت جلد ذئب.

ومع وصول تلك اللحى التي ودّعتها الأمشاط استقرّت أمور الموصل فنام الذئب الأغبر في أنقرة ملء عينيه لا ملء عين واحدة.

***

أوشك الجنود والضبّاط المتحلقون حول مشنقة الشيخ سعيد والمنتظرون أن يُسحب الكرسيّ من تحت قدميه، أن يغفوا ويستسلموا للنوم.

كان قطران الليل قد غطّى وجه دياربكر وبات خيال الشيخ يسبح بصعوبة بالغة في ذلك السواد.

قال الشيخ، والعرق يتصبّب منه، متوجّهاً إلى تلك الوجوه الكالحة حوله:

- هذا مقام من مقامات التصوّف يا صائب بيك. هذا مقام الفناء في الخلق. قبل سبعين عاماً انفصلت القطرة عن بحر اللاوجود وها هي القطرة تصبّ الآن في بحر الوجود الحقيقي. لقد بلغت حياتي الفانية نهايتها لكنني لست نادماً لأنني أموت هكذا. إنني أفدي الدين والناس بروحي ولن يخجل الأحفاد حين يتذكرونني.

تقدّم علي صائب بيك، رئيس محاكم الاستقلال في دياربكر الذي كان بعيداً ينظر في ساعته، وسأل الشيخ:

- يا شيخ أفندي، أهذا آخر كلام لك؟ ألا تضيف شيئاً آخر؟

- بلى. عندي وصيّة أخرى نسيت أن أمليها في المحكمة. منديلي.

- ذلك المنديل الأسود؟

- لم يكن أسود. لوّثته أيادي ذوي القلوب السوداء.

كانت قد مرّت على اعتقال الشيخ خمسة وسبعون يوماً. أشرقت فيها الشمس خمساً وسبعين مرّة وغربت كذلك. أمّا الشمس التي كانت تتوسّط منديل الشمس فقد أظلمت بين يدي قاسم بيك أكثر من ليلة شتاء حالكة الظلام.

- بعدد المرات التي تشرق فيها الشمس، تغرب أيضاً، إلا شمس القلوب فإنّها لا تعرف الغروب.

قال الشيخ لنفسه وبدأ خياله يخوض لجج قطران تلك الساعة.

حين وصل هو ورفاقه المكبّلون إلى دياربكر، خرج الناس دامعي الأعين لمشاهدتهم. كانوا ينظرون إلى لحيته، قفطانه،

حذائه وعمامته الناصعة. تهامسوا في ما بينهم مدهوشين:
ـ لا ظلّ للشيخ!
ـ إنّه نور، وهل للنور ظلّ؟
ـ انظر إلى بياض عمامته! وكأنّه ليس هو من يقاتل منذ عدّة أشهر!
حلقت بضع طائرات عسكرية في سماء دياربكر تلك اللحظات. اختلط هديرها بضجيج آلات التصوير التي كانت تصوّر الشيخ ورفاقه. ألقى الشيخ نظرة على تلك السماء المزدحمة بالطائرات كصحن يحط عليه الذباب، ثم جال ببصره على وجوه المصوّرين الواقفين خلف آلاتهم، نظر إلى النظارة ثم التفت إلى أعماق قلبه وقال:
ـ إيه يا دياربكر. ها أنذا أسيرٌ عندك. ما كان هذا رجائي منك.
أبعد أحد الضبّاط المصوّرين وقال:
ـ يكفي. لا تقلقوا راحة الشيخ. إنّه مرهق.
ثمّ سار بالشيخ ورفاقه إلى السجن وسط التكبيرات.

***

ـ الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله والله أكبر. الله أكبر ولله الحمد.
بعد يومين، ومع شروق الشمس، كان الحجاج سيطوفون بالكعبة وهم يردّدون ذلك النداء. بعد يومين كان سيحلّ عيد

الأضحى وتُنحر مئات الألوف من الأضاحي.

كان طعم العيد في دياربكر مختلفاً. الشيخ ورفاقه كانوا الأضاحي التي ترفع صوتها بالتكبير.

وليلة صدر الحكم بإعدامهم كان يوم عرفة.

كان الحجّاج واقفين على جبل عرفة يرتدون ثياب الإحرام فوق أجساد عارية يتصبّب منها العرق تحت شمس الحجاز الواخزة مثل إبر من نار، وفي دياربكر كان علي صائب بيك رئيس محاكم الاستقلال يستجوب الشيخ قبل أن يصدر الحكم:

- أيجوز للمسلم أن يرفع السيف في وجه أخيه المسلم يا شيخ أفندي؟

- لننظر أولاً إلى الذين رفعنا السيوف في وجوههم. هل هم مسلمون؟

- أليسوا كذلك؟

- لا. لقد قضوا على الإسلام الذي كان خيطاً يربطنا بكم. قطعت أنقرة هذا الخيط فافترقنا.

- لكن دعواكم لم تكن دعوى دينيّة. كنتم تسعون إلى إقامة دولة كرديّة. زيّن لكم خيالكم ذلك.

- هذا واجب ديني. حرّية الكرد والدولة الكردية أيضاً من مقاصد الشريعة. لو كانت الجمهورية عادلة لما كان وقوفي في وجهها جائزاً. لقد ثرت من أجل الدين والناس. هذا ما يقوله التصوّف أيضاً. لقد تعلمنا من شيوخنا الكبار قولهم: همُّنا راحةُ الخلق. نحن انتفضنا وجاهدنا لأجل راحة الكرد.

دار نقاش طويل بين الشيخ وهيئة المحكمة. كان الشيخ هادئاً لطيفاً يرفق إجاباته بالابتسامة ثم يسكت منتظراً السؤال التالي. وحين قال له المحقق علي صائب بيك:

- لقد أصبحت سبباً في مقتل المئات من جنود الدولة وهذه جريمة. يجب أن تعتذر من أمّهاتهم.

انتفض الشيخ وفقد هدوءه فقال بحدّة:

- أعتذر؟ أيّ منطق أعوج؟ ومن سيعتذر من أمّهات الألوف الذين قتلهم أولئك الجنود. من سيجفّف دموعهنّ ويواسيهنّ؟ إن كان لا بدّ من الاعتذار فإنني سأقدّمه إلى الأمّهات اللواتي أتيت بأبنائهنّ إلى الانتفاضة دون أن أنتصر فيها وتسبّبت بمقتلهم. سأعتذر فقط من هؤلاء يا صائب بيك.

احتدّ علي صائب بيك بدوره. أصدر الحكم، الذي كان قد صدر سابقاً في أنقرة، وقال:

- بما أنكم تمرّدتم على الجمهورية وعصيتم قوانينها فإن عقوبتك أنت ورفاقك هي الإعدام. الليلة تذهبون إلى المشانق.

قال الشيخ مبتسماً: "لو سمحتم لي بورقة وقلم!". وحين أتوه بها كتب هذين البيتين:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أيّ جنب كان في الله مصرعي

ولست بمُبدٍ للعدوّ تخشّعاً
ولا جزعاً، إنّي إلى الله مرجعي

وفجأة نشفت شفتاه كأنّ شجيرة لبلاب من نار عرّشت عليهما. غزاه ظمأ لا حدود له. لم يعد يتكلّم. ترك المجال لخياله كي يعيد فصول حياته ويبسطها مثل منديل أمام عينيه. لكنّه سمع صوتاً بالتركيّة يقول:

- هيّا اخرجوا واحداً وراء الآخر.

كانت تلك الجملة آخر مسمار يُدق في روحه.

أمسك جنديّان بذراعيه ثم ساقاه وظمأه إلى ساحة الإعدام. صرخ أحد رفاقه من بعيد:

- الشيخ عطشان. لا تأخذوه قبل أن يشرب.

الخطوة الرابعة

"الخيال أصل الموجودات."

من كلام الصوفية

- هيّا اسحب ذلك الكرسيّ من تحت قدميه. هيّا. قلت لك هيّا.
مع هذه الأوامر الصارمة، مدّ الجندي الواقف بجانب الشيخ قدمه اليمنى إلى الكرسيّ ووضعه بجانب أحد مسانده الثلاثة. عرف الشيخ أنها الثواني الأخيرة. لفّ ضبابٌ كثيف مثل كفن ما بقي من صور حياته. لم يعد يرى أحداً وكأنّه دخل فجأة كهفاً مظلماً. بدأت ذاكرته المنهكة تلهث، أدار الخيال ظهره له ومضى. كلّ الوجوه اختفت إلّا وجه الموت.

فكّر الشيخ في موته الشبيه بقافية جافة قاسية.

ألقى آخر نظرة على الحبل الذي يلتفّ على رقبته ثم نظر إلى السماء الخرساء، تخيّلها جوزة محترقة معلقة في الأعالي. أراد أن يرمي بسؤاله المؤجّل مثل جوزة فوق القبّة النورانيّة التي تظلّل الربّ.

- يا إلهي. يا ربّ. إنه ليس سوى سؤال وحيد، سؤال صغير أطرحه على ربّ كبير. إنّه سؤال مؤجَّل لم يسعفني الخيال، أنا عبدك، أن أطرحه عليك. الآن ها أنذا بين يديك. يلفّ حبل المشنقة رقبتي ويصوغ قافية لحياتي. الآن أريد أن أطرح عليك سؤالي.

كان قلبه يخفق. قلبه الذي سيتوقف بعد لحظات يخفق بعنف.
كان صامتاً لكنّ عينيه كانتا أكثر صخباً من مدينة.
نسي عطشه. نسي الموت وحبل المشنقة والحياة. نظر بعينيه الطافحتين بأمواج الأسئلة إلى السماء المظلمة وقال:
- إلهي...
لم يكن الجندي المتأهّب لسحب الكرسيّ من تحت قدمي الشيخ على علم بالسؤال الذي يودّ هذا العجوز أن يرميه مثل حبّة كستناء على جمرة السماء المطفأة. سحب الكرسيّ ذا المساند الثلاثة فاختنق السؤال المالح في فم الشيخ الجافّ. ضاقت حلقة الحبل. شعر الشيخ كأنّ ألف رجل يشدّون رجليه المعلقتين في الهواء إلى الأسفل. صار الحبل يضيق مع كلّ حركة منه. حاول أن يرفع رأسه ويحرّر عنقه قليلاً، فرك إحدى قدميه بالأخرى. بحث عن أرض يضعهما عليها. زادت الحصاة من جرح قدمه اليسرى. انسكب ملح السؤال المخنوق من فمه إلى قلبه. تصبّب العرق منه. مال برأسه إلى جهة قدمه الجريحة حتّى أوشكت عمامته أن تقع. كاد نعلاه أيضاً يقعان على الأرض. أراد أن يفكّ يديه المقيّدتين إلى الخلف ليستند إلى عمود من أعمدة المشنقة على يساره. تباطأ نبض قلبه. تكثفت دماء الشرايين. صعب عليه التنفّس وشعر بحجر رحى على صدره.
همدت أنفاسه.

غامت عيناه. ماج ضباب أسود كثيف أمامهما. عرَّش ذلك الضباب مثل لبلاب من قطران على أغصان روحه. صار خياله يعوم وسط بحر لانهائي من الظلمة. ارتجف جسده المتعرّق بشدّة. تلى تلك الرجفة القويّة نومٌ عميق.
لم يعد يرى السماء. لم يعد يرى المشانق. لم يعد يرى وجوه الجنود. لم يعد يقاوم.
وسط ذلك الضباب والظلمة، ومن وراء ستارة خضراء في وسطها شمس ذهبيّة بسبعين شعاعاً خرجت بريخان بهدوء. كان شعرها الذهبي مسترسلاً مبلّلاً. ثيابها تقطر ماءً. وقفت بريخان عند حافة بئر. كانت تبتسم. تقدّمت خطوة إلى الأمام فطار الظلام من تحت قدميها كسرب من الغربان وما لبث أن بزغ نور حنون من أثر خطوها. مدّت بريخان إليه كأس ماء. ابتسم هو أيضاً. خطا صوبها. تدحرجت حبّات جوز مثل كرات النور من بين قدميه. كانت تضيء كالمصابيح.
اقترب الشيخ من بريخان. صارت في حضنه. قالت له بريخان بصوت ألين من الماء:
- هذه خطوتك الرابعة، روحي فداك.
تناول الشيخ الكأس من يدها. نظر إلى حبّات الجوز المتدحرجة وسكب ما في الكأس في حلقه. لم ينفد ماء الكأس. بدا كأن في قعرها مئة ينبوع. شرب كثيراً ولم يرتوِ. شرب كأنّه ظامئ منذ ألف عام، شرب كأنّ ألف عام أمامه لن يشرب فيها مرّة أخرى. كان يشرب وينظر إلى وجه بريخان، ينظر

إلى عينيها. كانتا مثل بحيرتين مليئتين بزوارق الأسئلة. هبّت نسمة باردة من شعرها المبلّل. هزّت تلك النسمة غابات قلبه حتى سمع حفيف الأغصان. تساقطت الأوراق من ثقل الندى. امتلأت الأجواء بالرطوبة. نبع الماء في كلّ بقعة.

بقي الشيخ سعيد ظامئاً. تكسّرت حبّات الجوز المتدحرجة عند قدميه فخرج منها غبار أبيض. تحوّل الغبار إلى نور ساطع غمر المكان. كان نوراً أشدّ بياضاً من الثلج وأكثر كثافة من ضباب بلاده. لم يعد الشيخ يرى شيئاً. ضاعت بريخان وراء أمواج ذلك النور.

وضع يديه على عينيه من شدّة النور وقوّة لمعانه. لم يختف النور. لم تعد عيناه تؤلمانه. اتّحد مع ذلك النور. لم يعد يرى نفسه.

سمع صوتاً من تلك الأرجاء. لم يعرف من أيّ ناحية. لم يكن هناك شرق وغرب، فوق وتحت، أمام ووراء في تلك اللحظة. لم يتوقف الصوت. لم تتوقف أمواج النور. كان صوتاً عميقاً، ليّناً، ثقيلاً كأنّ النعاس يلفّه. لم يكن صوتاً بشريّاً. كان صوتاً أقرب إلى الضوء، كان صوتاً مرئيّاً مثل ضباب كثيف خرج من بين تلك الأمواج البيضاء الساطعة وانسكب إلى أذني الشيخ قائلاً:

- ما هو سؤالك؟

ألمانيا، أيلول ٢٠٠٧

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

اضطرّ الشيخ سعيد لقيادة ثورة الكرد على تركيا، قبل أن تنضج ظروفها واستعدادتها، فانتهى بها الأمر إلى تلاشي الحلم الكردي بالاستقلال. هو القائد، لكن في لحظات الانفعال والغضب لا أحد يصغي إليه.

أمام المشنقة المنتصبة أمامه، والمشانق الأخرى التي تتدلّى منها أجساد رفاقه، تدافعت الوقائع والذكريات كنهر من السنوات.

كان قد قطع وعداً لبريخان بألا يستعمل منديلها سوى لتجفيف دموعه. لكنّ دمعته الأخيرة سالت دون أن يستطيع مسحها، فالمنديل صادَرَه الجنودُ الأتراك، ويداه موثقتان في خطواته الأخيرة إلى الموت.

قيل في الكتاب

«حين تقرأ لجان دوست، تشعر أنك تقرأ رواية عالمية.»
جريدة السفير

نبذة عن المؤلف

جان دوست كاتب وروائي سوري مقيم في ألمانيا.
حاز جائزة القصة القصيرة في سوريا عام **1993**، وجائزة الشعر الكردي في ألمانيا عام **2012**.

كتب أخرى للمؤلف

«نواقيس روما»

Table of Contents